جنكيز أيتماتوف

الأرض الأم

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

دار ومؤسسة رسلان
الطباعة والنشر والتوزيع

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

МАТЕРИНСКОЕ ПОЛЕ

جنكيز أيتماتوف

الأرض الأم

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

منشورات دار علاء الدين

• الأرض الأم.
• تأليف: جنكيز أيتماتوف.
• ترجمة: د. ماجد علاء الدين.
• الطبعة الأولى 2016.
• عدد النسخ 1000.
• الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-18-823-8

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598 جرمانا
www.zoyaala-addin.com
ala-addin@mail.sy

دار ومؤسسة رسلان
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
www.darrislan.com
darrislansyria@gmail.com

وفاءً لذكرى
السيدة زويا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

الإهداء

أبي، لا أعلم، أين أنت مدفون،
أهديك عملي هذا، يا توريكول إيتماتوف.
أمي، لقد ربيتينا، نحن الأربعة،
أهديك عملي، يا ناغيما إيتماتوفا.

المؤلف في سطور

ولد الكاتب في 1928/12/12 في منطقة كيروف - جمهورية قرغيزستان السوفيتية الاشتراكية.

باشر حياته الأدبية بالكتابة بلغته الأم (القرغيزية) وتعلم اللغة الروسية منذ صغره في المدارس السوفيتية، وأبدع فيها أكثر منه لغته الأم. أنهى دراسته الجامعية في معهد الهندسة الزراعية في عام 1953. نشر أولى أعماله باللغة الروسية، وكان ذلك في عام 1958 إذ نشر قصة "جميلة" التي حققت له شهرة أدبية ممتازة، وعكس فيها مصير الشابة القرغيزية المضطهدة في المجتمع القروي آنذاك، ثم نشر قصة "الجبال والسهول" في عام 1962، وحصل على جائزة لينين في المسابقة الأدبية لعام 1963، ثم نشر قصة "المعلم الأول" ورواية "وداعاً يا غولساري" في عام 1966. حصل على جائزة الدولة لعموم الاتحاد السوفيتي لعام 1968.

اشتهر المؤلف جنكيز أيتماتوف ككاتب مجدد ومطور لمدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب، واستقطب اهتمام القرّاء في مقدرته الإبداعية على الغوص في

أعمال السيكولوجيا الحياتية في عوالم الأبطال الذين قدمهم في نتاجاته كرمز للتضحية من أجل المثل الإنسانية الشفافة. وكان كل بطل من أبطال قصصه غنياً وعملاقاً في مثله الروحية.

أصبح أيتماتوف عضواً في مجلس السوفيت الأعلى (مجلس البرلمان) في الدورة السابعة، ونشر فيما بعد قصة "حورتي في منديل أحمر" وقصة "السفينة البيضاء"، وقصة "عين الجمل" ورواية "الأرض الأم" التي حققت طموحات المهندس الزراعي في أن يعكس حبه للأرض وشفافية تلك العلاقة المتينة بين الإنسان والأرض الأم، ولقد حاز عليها عدة جوائز محلية ودولية. وفي العام 1974 نشر المؤلف الروائي المعروف أيتماتوف رواية "النطع" الموسوعية، إذ يتضمن الكتاب رواية أدبية هائلة نادرة من نوعها لكثرة الموضوعات التي طرقها الكاتب بعبقرية نادرة.

وتجدر الإشارة إلى أن رواية "النطع" الموسوعية قد أثارت ضجة كبيرة في عموم الاتحاد السوفيتي، إذ غرس أيتماتوف بذور الواقعية النقدية في الأدب السوفيتي الاشتراكي، وطرح عدة أسئلة مهمة على الدولة السوفيتية، وعلى قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، الذي انتسب إليه الكاتب في العام 1959، وقام بنشاط فعّال في إصلاح السلبيات. ولقد تمت بترجمة رواية النطع في العام 1984 إلى اللغة العربية وأعيدت طباعتها عدة مرات في دار علاء الدين للنشر، ولقد طبعت دون طلب مني في عدة دول عربية من قبل المزورين. انتظروا صدور معظم مؤلفات جنكيز أيتماتوف بترجمة جديدة تخصصية.

المترجم

د. ماجد علاء الدين

1

في فستان أبيض نظيف، وصدرية ضيقة قاتمة، وفي منديل أبيض، جمعت شعرها، وسارت ببطء، عبر طريق بين السهول، التي تم حصادها.

لم يكن حولها أحدٌ ما. عصف الصّيف بكل هيبته. لم يسمع صوت كائن من كان من البشر، ولم تعد تثير السيارات والشاحنات الغبار الكثيف عبر الطرقات القروية، وغادرت الحصادات، ولم تأت بعد قطعان الماشية للرعي في السهول، التي تم جني المحاصيل فيها.

وخلف الجبل الرمادي، امتدت بعيداً السهول الخريفيَّة، أمّا السحب الدخانية فقد انسابت في الفضاء بكل هدوء من فوقها. وثمة نسيم هادئ، أخذ يلامس وجه الأرض بحنان، متجنباً التعثر والغبار وهو يذهب ليتشبع بمياه النهر، وفي الصباح كانت تفوح رائحة الأعشاب، والأرض ترتاح بعد الحصاد، قريباً ستتلبد السماء بالغيوم، وتسقط الأمطار، وتغطي الثلوج وجه الأرض، وتقصف الرعود، أما الآن فما زال الجوّ هادئاً، ولا يجوز إزعاجها. ها هي تقف وتنظر طويلاً من حولها، بعينين كئيبتين أرهقهما طول العمر.

- مرحباً أيّتها الأرض - قالت تولغوناي بهدوء.

- مرحباً يا تولغوناي، لقد عدت؟، وأرى أن الكبر قد نال منك، وشعرك قد شاب.

- نعم، هذا ما فعله الكبر، لقد مضى عام آخر، وها أنتِ أيّتها الأرض تمطين موسماً جديداً جيداً.

- أعرف. وإنّني انتظرتك يا تولغوناي! اليوم يوم الغفران، ولكنك اليوم جئتِ وحيدة؟

- كما ترين أيّتها الأرض الأم، مرة أخرى لوحدي - أجبت بامتعاض.

- هذا يعني، أنك لم تتحدثي له عن أي شيء، يا تولغوناي؟

- كلا، إنّني لم أجرؤ.

- وهل تعتقدين أنه لن يحدثه أحدٌ في يوم ما عن هذا؟ وتتصورين أنه لن يخطئ أحد في الكلام أمامه عن غير قصد.

- كلا، كيف لي أن أعتقد هذا؟ الآن أو فيما بعد، سوف يصبح الأمر معروفاً بالنسبة له. فهو قد كبر، والآن أصبح بإمكانه أن يعرف من الآخرين.

- أما هو فمازال بالنسبة لي طفلاً. إنني خائفة، حقاً إنني أخاف البدء بالحديث معه.

- ولكن على الإنسان أن يعرف الحقيقة، يا تولغوناي.

أفهم هذا، ولكن كيف لي أن أحدثه؟ وأنت تعلمين جيداً، أن كل ما أعرفه، تعلمينه أنتِ جيداً، أيتها الأرض القريبة منا، وأن كل ما يعلمه الجميع، لا يعرفه هو وحده فقط. وعندما سيعلم، كيف سيفكر هو، وكيف سينظر إلى ما حصل، وهل سيتفهم بعقله وقلبه تلك الحقيقة الكامنة في الأمر؟ إنه مازال ولداً. وها أنا أفكر، كيف لي أن أتصرف، وما عليَّ أن أعمله، حتى لا يدير ظهره إلى الحياة ويتشاءم، وحتى ينظر دائماً إلى الحياة بعينين مفتوحتين وجريئتين. آه، كم سيكون شيئاً جميلاً، لو وبسهولة تمكنت وبكلمتين أن أختصر الأمر وأحدثه كما في الحكاية! في المرحلة الأخيرة، بهذا وحده أفكر إن لم تأتِ الساعة على عجل، وأموت فجأة. ففي الشتاء، مرضت، ولم أتمكن من الوقوف، وأخذت أفكر - جاءت نهايتي ولم أخف من الموت - ولو جاء القدر لما قاومته، - أما الشيء الذي خفت منه أن أموت قبل أن أفتح عينيه على الحقيقة، وأن يعرف ذاته، وخفت أن

أحمل حقيقته معي إلى اللحد. أما هو حتى لم يخطر له على بال، لماذا كنت أتعذب، وأحجم عن الكلام... كان يتألم لوضعي، حتى لم يذهب إلى المدرسة أحياناً وكان يدور حولي، وأنا مضطجعة، - إنه يشبه أمه. وهو يقول: "ماذا تريدين يا جدتي! هل ترغبين بالماء أم بالدواء؟ وهل ترغبين بأن أثقل الغطاء عليك، حتى لا تبردين؟" أما أنا فلم أجرؤ على الكلام، ولم يتحرك لساني حتى أنطق بحرف واحد، يشير إلى ذلك أنه قريب للنفس جداً وهو بريء للغاية، ولا يوجد في داخله أيّ خبث كان. الزمن يمضي، وأنا لا أعرف من أية نقطة أبدأ في الحديث. وكنت غالباً ما أعاني من التفكير: أحدثه هكذا أو أبدأ هكذا، ومهما أطلت في التفكير كنت أصل إلى نتيجة، مفادها علي أن أنتظر كما يصلح بإمكانه أن يحكمه بصورة صحيحة، كما حصل، وحتى يتفهم الحياة بشكل صحيح، عليّ أن أحدثه، ليس عن نفسه شخصياً، وليس عن مصيره، بل عن مصائر أناس آخرين كثيرين، وعن ذاتي، وعن الوقت الذي عشت فيه، وأحدثه عنك يا أرضي العزيزة، وعن كل حياتنا، وحتى عن الدراجة، التي يركبها يومياً إلى المدرسة، ولم يخطر على باله ذات يوم أن يفكر في جوهر الأمر. ربما، هكذا يكون الأمر أفضل. فهنا يصعب على الإنسان أن يحذف شيئاً ما، أو يضيف شيئاً ما: لقد عجنتنا الحياة في طينة واحدة، وربطتنا بعقدةٍ واحدة. والتاريخ هو التاريخ، وليس بإمكان أيّ إنسان، حتى لو كان كبيراً في العمر، أن يتفهم التاريخ جيداً. يجب على الإنسان أن يعيش الحياة، ويتفهم أبعادها روحياً... وهكذا، أخلص إلى نتيجة... وأعلم، أن هذا واجبي، وسأكون سعيدة، إذا تمكنت أن أقوم بهذا، عندئذٍ لم يكن من المخيف أن أموت بلا حسرة..

- اجلسي يا تولغوناي! لا تقفي، رجلاك تؤلماك. اجلسي على ذلك الحجر، ولنفكر سوية، فهل تذكرين يا تولغوناي، عندما جئتِ أول مرة إلى هنا؟

- يصعب عليَّ تذكر ذلك، فكم مضى من الزمن على ذلك، وكم من المياه قد جرت..

- حاولي أن تتذكري، تذكري يا تولغوناي منذ بداية الأمر.

2

أتذكر كمن يسبح في الضباب، عندما كنت صغيرة، وفي أحد أيام الحصاد، أتوا بي إلى هنا، ماسكين بيدي، وأجلسوني في ظل العربة. لقد تركوا لي قطعة خبز، حتى لا أبكي، وفيما بعد، عندما كبرت كنت أركض إلى هنا إلى جني المحاصيل. وفي الربيع، كنا نمر من هنا مع قطعان المواشي، ونصعد معها إلى الجبال بحثاً عن المراعي، في تلك الأيام، كنت رشيقة وسريعة في المشي، لا أترك للتعب مجالاً أن ينال مني. يا لها من سنوات الشباب الجميلة لا همّ ولا غمّ! أتذكر، كيف كانت تأتي المواشي من المنحدرات، قطيع بعد الآخر وكلها مسرعة في البحث عن مواقع الأعشاب الجديدة في الجبال الباردة. يا لي من فتاة غبية كنت آنذاك! وعندما أعود بذاكرتي، تقف أمامي لوحة الرعاة، وهم يسرعون في السهول كالعاصفة مع خيولهم، ومجرد أن يغفل الإنسان للحظة بإمكانها أن تدوسه بسرعة، والغبار يتصاعد كثيفاً إلى السماء، وأنا كنت أختفي في القمح، وعندما يقتربون مني كنت أقفز إلى الأعلى فجأة كحيوانٍ مفترسٍ، حتى أخيفهم، فتتفرق الأحصنة في كل الاتجاهات، فيأخذ الرعاة بمطاردتي.

- إيه؛ يا لكِ من فتاةٍ شعثاء، الآن سنريك!

ولكنني كنت كالريشة خفيفة وأفلت من أيديهم، وأركض عبر القنوات.

أما قطعان الغنم الشقراء والماعز بلونه الأحمر، كانت تتعاقب يوماً بعد يوم، والآليات الثقيلة كانت تحف بالتراب، وكان ضجيج أظلافها كوقع كميات هائلة من البرد. وخلف هذه القطعان كان الرعاة السمر يسوقونها بأصواتهم البحة، ثم تعاقبت بعد الأغنام قطعان الثيران وقوافل جبارة من الجمال، مع قرب الكوميس [1] المثبتة إلى الرجال. أما الفتيات الصغيرات كنَّ يرتدين الحرير الملون، ويتمايلن من فوق سروج الأحصنة الرهوانة السريعة، وهنّ يغنين عن المراعي والهضاب الخضراء، وعن الأنهار الصافية الجميلة. أعجبت بلا نهاية بهذا، ونسيت كل شيء في الدنيا، وركضت مسافات طويلة خلفهم. وكنت أتمنى: "حبذا لو كان عندي من يأخذني معه، وأنا فتاةٌ في فستان جميل، ومنديل ذي شراريب مزخرفة!" وهكذا تابعتهم راكضة، وأنا أتنعم بالنظر إلى كل منهم، حتى اختفوا بعيداً عني. فمن كنت آنذاك؟ ابنة عامل في الأعمال الزراعية، غالباً ما كنت حافية القدمين. أمّا جدي فقد أبقوا عليه كحرَّاثٍ للأرض لفترةٍ طويلة لسداد ديون كانت عليه، وهكذا أصبحت أسرتنا تعمل كأجراء في الزراعة، ولكني وعلى الرغم من أنني لم أرتدِ في حياتي فستان حرير، كنت أكبر كفتاة ملحوظة. وكنت أحبُّ النظر إلى ظلي، أسير وأنظر إلى ظلي، وكأني أقف أمام مرآة، وأعجب بذاتي... حقاً لقد كنتُ فتاةً غريبة الأطوار، أقسم بالله، عندما بلغت من العمر

---

[1] الكوميس، حليب الخيول المخثر، حيث في آسيا الوسطى (كازاخستان، أوزبكستان، قرقيزيا، تركمانيا، أذربيجان)، يشرب الناس حليب الخيول، وتأكل لحومها في المناسبات خاصة. - المترجم.

سبعة عشر عاماً، أخذت أعمل في الحصاد، وهناك التقيت سوفانكول. وفي تلك السنة قدم من طلاس العلوي للعمل في جني المحصول الزراعي. وحتى الوقت الحاضر - أطبق جفوني وأراه كما كان نقطة- نقطة. لقد كان شاباً في التاسعة عشر من عمره... لم يكن لديه قميص يرتديه، وكان يرتدي سترة عتيقة بدون أي لباس داخلي تحتها. كانت الأجزاء المكشوفة من جسده سمراء جداً من الشمس، وكأنه دهن جسمه بالسخام الأسود؛ وبرزت عظمتا خدّيه في وجهه، ولمع جلده فوقهما بلون المسل القاتم، وبدا من حيث المظهر الخارجي نحيفاً، رقيق العظام، ولكن صدره كان قوياً، ويداه قويتان كأنهما حديدتين. فقد كان عاملاً نشيطاً - لن تجد مثله ببساطة في وقت قصير. كان يحصد القمح بسرعة، ودون ضياع السنابل، وتسمع فقط، كيف كان يقص بالمنجل قش القمح بصوت خاص. ويلقي بالسنابل المحصودة برتابة على الأرض. ويصادف أن يلتقي بعض العاملين المهرة، الذين تتمتع بالنظر إلى عملهم. وكان سوفانكول واحداً من هؤلاء.

ورغم أنني كنت ماهرة في الحصاد، وضرب المثل بي، كنت أقصر بعيداً عنه، وهو ينهب الأرض نهباً، وكأنّه الحريق في الزرع، وغالباً ما كان ينظر نحوي، ويعود ليساعدني حتى أتقدم على سوية واحدة معه. ولكن هذا كان يغيظني، وكنت غالباً ما أخرج عن طوري وأرفض مساعدته؛ وأقول له:

- مَنْ طلب منك هذا؟! يا للعجب! اترك عنك، أنا سأقوم بفعل هذا!

أما هو فلم يغضب، يبتسم ويقوم بصمت بواجبه، ولماذا كنت أغضب آنذاك، يا لي من غبية؟!.

كنت وإياه نحضر إلى العمل في مقدمة العاملين، ومجرد أن يظهر النور الأول قبل الفجر، والناس نيام، كنا نحن نسير في الطريق إلى الحقل. كان سوفانكول ينتظرني عند مدخل القرية، في بداية طريقنا.

كان يبادرني بالكلام والتحية: - جئتِ يا تولفوناي؟

أما أنا فكنت أفكر، كم مضى من وقت طويل على مغادرتك.

- كنت أجيبه دائماً، وأنا أعلم أنه لن يذهب بدوني وحده.

وهكذا، كنا نسير سوية.

عم نور الفجر، وبرزت الأطر الذهبية حول الثلوج المتراكمة فوق قمم الجبال العالية، وانساب النسيم من جهة السهوب؛ ليلاقي التموجات الزرقاء في النهر القريب. وكانت هذه الفجور الصيفية، بداية حبنا. وعندما كنا سوية معه، كان العالم يصبح بالنسبة لي عالماً آخر مزخرفاً، كما في الحكاية. فالأرض الرمادية، التي كانت قد فقدت جمالها بعد الحصاد، وداستها الأرجل، والمواشي كانت تبدو أمامنا أجمل أرض في الدنيا، ومعنا كان يلتقي الفجر الباكر، بعض القنابر المبكرة، التي أخذت تطير عالياً، وكان يقف في السماء كنقطة جامدة.

ثم يرف أحياناً بجناحيه عدة خفاقات متتاوبة، كقلب الإنسان، وأخذ يغرد بأصوات مليئة بالسعادة...

- انظري، لقد أخذ يغني قنبرنا للقائنا! - قال سوفانكول: يا للعجب، حتى بين القنابر كانت لنا في هذا الكون قنبرتنا الخاصة!

أمّا ما يخص الليالي القمرية؟ فربما لم تعد ثانية بتلك الجمالية الرائعة. وفي تلك الليلة القمرية الجميلة بقيت مع سوفانكول لنعمل تحت ضوء القمر. وعندما ارتفع القمر نقياً مشعاً فوق قمة ذلك الجبل

القائم، أخذت النجوم تدريجياً تفتح عيونها. وبدا الأمر، وكأن هذه النجوم ترانا - أنا وسوفانكول، كنا نضطجع عند حافة القناة، وقد فرشنا تحتنا سترة سوفانكول، أما الوسادة فكانت الحفة البارزة من القناة، وهذه كانت أنعم وسادة، وهذه كانت ليلتنا الأولى، ومنذ ذلك اليوم بقينا سوية طيلة الحياة... وأخذ سافانكول يمسح بيده الثقيلة والقاسية كالحديد الصب على وجهي، وجبهتي، وشعري، وكنت أحس من خلال كفه، كيف كان يدق قلبه بسرعة وغبطة، عند ذلك قلت له هامسة:

- سوفان، هل تعتقد أننا سنكون سعيدين، أليس كذلك؟

وأجابني:

- إذا توزعت الأرض والمياه على الجميع بصورة متساوية، وإذا ساعدنا القدر أن تكون لدينا قطعة أرض، نحرثها ونزرعها، ونحصل على القمح الذي سيكون خبزنا اليومي - فهذه السعادة الحقيقية لنا. وأكثر من هذه السعادة للإنسان لا يوجد، ولا يلزمه أكثر منها يا تولفون، فسعادة حصاد القمح تنحصر في زرع البذار وجني المحصول.

لقد أعجبتني، ولسبب ما، تلك الكلمات التي تفوه بها، ولقد عمَّ شعورٌ دافئ بيننا. لقد ضممت سوفانكول إلى صدري، وأخذت أقبل وجهه، الذي لونته الشمس بلون البرونز، ثم اغتسلنا بمياه القناة، وقذفنا الماء على بعضنا، وضحكنا. كان الماء بارداً نسبياً، طازجاً، يفوح بعطر رياح الجبال. ثم اضطجعنا، ونحن نشبك أيادينا، التزمنا الصمت قليلاً، وأخذنا ننظر بكل بساطة إلى النجوم التي تبعثرت في السماء لقد كانت كثيرة في تلك الليلة.

أما الأرض في تلك الليلة الزرقاء المضيئة فقد بدت سعيدة معنا. وقد تنعمت الأرض في تلك الليلة بالجو الطازج والسكون، وخيَّم فوق

السهوب سكونٌ شفافٌ هادئ. وفي القناة عند رأسينا كان يترقرق الماء بهدوء. وكان أريج الزهور ذو الرائحة العسلية يعصف في رؤوسنا حتى الدوران وكانت في أوج مرحلة إزهارها، وبين الحين والآخر، كان يعود إلى أنوفنا أريج دافئ من نبات الشيح الجاف مع رائحة الحرور، وعند ذلك تموجت السنابل فوق تخوم القناة، وأصدرت حفيفاً خاصاً، ربما أنّ تلك الليلة كانت وحيدة، ولم تتكرر ثانية. وفي منتصف الليل، وفي الهزيع الأخير منها، نظرت إلى السماء ورأيت "طريق التبانة" حيث يمتد هذا الطريق المكون من النجوم الدقيقة عبر قبة السماء الفضية الفسيحة بين النجوم الكبيرة، لقد تذكرت كلمات سوفانكول، وفي حقيقة الأمر، فكرت أنه، ربما قد صعد إلى السماء، واجتاز مسافات في السماء، حصاد قمح عملاق يحمل غمراً كبيراً من قش القمح، وترك خلفه أثراً للعصافة المنثورة والحبوب. وفجأة تصدرت نفسي، أنه، وفي وقت من الأوقات، في حال أن تحققت أمنياتنا، سيقوم سوفانكولي حاملاً كمية من قش القمح الأول، وينثره في السماء، سوف يتكون خلفه طريق يشبه درب التبانة، هكذا كنت أحلم، وأنا أنظر إلى النجوم التي كانت تحلم معي أيضاً، وفجأة عصفت رغبة في كياني أن يتحقق كل هذا. وعند ذلك، ولأول مرة توجهت إلى الأم - الأرض بخطاب إنساني، وقلت راجية:

"أيّتها الأرض، أنت تحبين الجميع من بني البشر العاملين فوق صدرك؛ وإذا لم تعطينا السعادة، فإنك ستفقدين صفة الأرض، التي تمتازين بها، وعند ذلك يظهر السؤال: لماذا خُلقنا نحن في هذا الكون؟. فنحن أبناؤك، فأعطينا أيّتها الأرض السعادة، واجعلينا سعداء!" هذه هي الكلمات التي خاطبتُ بها الأرض في تلك الليلة.

وفي الصباح استيقظت، ولم أجد سوفانكول إلى جانبي. ولم أحس، حتى نهض، وحسب اعتقادي استيقظ مبكراً، ورأيت كيف كانت أكوام قش القمح منتشرة خلطة لمساحة كبيرة، وعندئذ شعرت بالخجل أنني لم أستيقظ معه، وأعمل معه في ساعة مبكرة على طريق سعادتنا..

- لماذا لم توقظني يا سوفانكول؟ - قلت بصوت عالٍ.

التفت سوفانكول نحوي؛ ومازلت أذكر كيف كان في ذلك الصباح عارياً فوق الحزام، وبدا كتفاه سمراوين قويين، تلمعان من التعرق، وقف، ونظر ببشاشة، وسعادة، وكأنه يراني للمرة الأولى. مسح وجهه بكفه، وقال مبتسماً:

- لقد أردت أن تنامي أكثر.

- وأنت؟ - سألته برقة.

- كيف لي أن أنام مطولاً، وعلي الآن أن أعمل عن اثنين - أجابني بهدوء. وهنا شعرت بالخجل، والغضب من نفسي حتى كدت أبكي، بغض النظر أنني كنت أشعر بارتياح في داخلي.

- وأين كلماتك التي قلتها البارحة؟ - قلت معاتبة إياه، - أنت قلت أننا سنكون دائماً معاً، ومتساويين كشخص واحد.

- أسقط سوفانكول المنجل من يده، وركض نحوي، رفعني عالياً فوق ذراعيه، وقال، وهو يقبلني:

- من الآن وصاعداً، معاً في كل شيء، - كشخص واحد. أنتِ يا قبرتي الجميلة، يا قريبتي، يا عزيزتي..!

لقد حملني على يديه، وكان يتحدث معي، ويخاطبني يا قبرة وغيرها من الكلمات مدللاً ومتلاطفاً معي؛ أما أنا فقد تمسكت بعنقه، وأخذت أضحك بصوت عالٍ، وألوح برجليَّ، وأقهقه، "فالقبرة "

عادة يطلقونها على الأطفال الصغار، ورغم كل ذلك كان من الطيب على قلبي أن أسمع مثل هذه الكلمات اللطيفة!

بزغت الشمس لتوها، وأخذت ترتفع من جانب الجبل الآخر. أنزلني سوفانكول إلى الأرض، ضمني، وهو يضغط بذراعيه محيطاً كتفي، وفجأة صرخ، مخاطباً الشمس:

- إيه! أيتها الشمس! انظري، هذه هي زوجتي! انظري إليها كم هي جميلة! وادفعي لي مقابل النظرات إليها، الأشعة والنور!

لا أعلم، هل كان يتكلم مازحاً، أو جاداً، ولكنني فجأة بكيت، إنني لم أتمكن من تمالك نفسي، وأنا أشعر بالسعادة التي غمرت صدري ونفسي..

والآن أتذكر، وأبكي. لماذا كنت غبية! وكانت هناك دموع أخرى، وتمنح هذه الدموع للإنسان مرة واحدة في الحياة، وهل تتحقق أحلامنا، كما رغبنا؟ لقد تحققت، فأنا وسوفانكول بنينا حياتنا بأيدينا. عملنا معاً، ولم نترك الفأس من أيدينا لا في الشتاء، ولا في الصيف، ولقد تصبب العرق منا الاثنين بكميات كبيرة، وعملنا كثيراً، لقد كان هذا في الزمن الجديد. وبنينا منزلاً، وقمنا بتربية المواشي بطرق مختلفة. وبكلمة أصبحنا نعيش كالبشر. والشيء الأهم - الأولاد، لقد أنجبنا ثلاثة، واحداً بعد الآخر، وكأننا انتقيناهم انتقاء. والآن، أعاني في بعض الأوقات من بعض الهموم؛ إذ تحصل بعض الأمور تهز الروح، وتلذعها أحياناً. وتخطر على بالي بعض الأفكار غير الجدية: لماذا أسرعت بولادتهم كالغنمة، بين الولادة والأخرى عام ونصف، ولم أفعل كالأخريات، الوقت بين الولد والآخر ثلاث إلى أربع سنوات! ربما كان الأمر أفضل، ولم يحصل وجع الرأس هذا، وربما كان من الأفضل، لو لم يولدوا نهائياً. ومهما يكن

فـأولادي هـم أولادي، فأنـا أتحـدث هكـذا مـن الألم والمعانـاة، فأنا أم، أم...

أتذكر، كيف ظهروا لأول مرة هنا. لقد كان هذا في ذلك اليوم الذي جلب فيه سوفانكول إلى هنا، ولأول مرة الجرار الأول. ولقد داوم سوفانكول طيلة موسمي الخريف والشتاء على دورة في زاريتشي على الجهة الأخرى للضفة، وخضع لدورة تعليم قيادة الجرارات. ونحن لم نكن نعرف آنذاك، ماذا يعني الجرار، وما ولأي غرض يستخدم، وكنت أقلق جداً عندما يتأخر سوفانكول في العودة ليلاً - الطريق كان طويلاً - وكنت أشفق عليه لكثرة أتعابه وأقف خلفه برضا:

- من أجل ماذا أتعبت نفسك وأتعبتنا معك في هذه الدورة التدريبية؟ وهل كان وضعك سيئاً كرئيس العمل في الكولخوز [1] ...- قلت له معاتبة.

أما هو فقد ابتسم كما يفعل دائماً برضا ومحبة.

- لا تقلقي، يا تولغوناي، انتظري قليلاً، قريباً سيكون الربيع - عند ذلك سوف تتأكدين، أن الخسائر قليلة...

كنت أتكلم هكذا معه ليس من باب الغضب، فقد كان الأمر صعباً بالنسبة لي وحدي مع الأولاد، وتدبير شؤون المنزل، وتربية المواشي، وغيرها من أعمال في الكولخوز، وكنت أنسى الأمر بسرعة، أنظر إليه، فأجده قد تجمدت أطرافه من البرد خلال الطريق، بلا أكل، وأنا أزيد الطين بلة، وأطلب منه تبرير تأخره - وعندما أفكر بعقلانية، أشعر بالخجل وأقول وكأنني قد سامحته:

---

[1] الكولخوز - جمعية تعاونية زراعية انتشرت في الأرياف أيام المرحلة السوفيتية ومازال بعضها حتى الوقت الحاضر - المترجم.

- لا بأس! هوّن عليك، اجلس بالقرب من الموقد، فالطعام قد برد، وأنا أنتظرك.

أما أنا فقد كنت أعرف في قرارة نفسي، أن سوفانكول لم يذهب ليلعب في الدّمى. ففي القرية آنذاك لم يجدوا شخصاً متعلماً، ليقوم بهذه الدورة، ولذلك تقدّم سوفانكول لتحمل المصاعب: "أنا، - قال هو برزانة، - "سأذهب للدورة وسأتعلم القراءة والكتابة، ولذلك أطلب منكم إعفائي من مهمة رئيس العمل".

لقد قرر القيام بهذا العمل، الذي أصبح أكبر من طاقته، هذا شيء جيد، وموقف رجولي، ولكن متاعب الأعمال قد زادت عن إمكانياته حتى وصلت إلى حنجرته. وأتذكر الآن - كان وقتاً طريفاً - فالأولاد كانوا يعلمون آباءهم وأمهاتهم الأبجدية. فقاسم وماصلبيك، دخلا المدرسة، وكانا بمثابة المعلمين لأبيهم. وكان البيت في الأمسيات، حسب الوقت - مدرسة فعلية. لم تكن آنذاك طاولات، ولا كراسي. فكان سوفانكول ينكب على الأرض، جاثياً على ركبتيه، أو منبطحاً على الأرض يتعلم طرق كتابة الحروف ولفظها باهتمام والتدرب عليها في الدفتر. أما الأولاد الثلاثة، فكانوا يحيطون به، وكل منهم يعلمه كيف يكتب، وكيف يلفظ الحروف، إذ يقولون: "أمسك قلم الرصاص يا أبي بشكل عامودي، انظر هنا، كيف انحدر السطر معك نحو الأسفل، انتبه لحركة يدك، فهي ترتجف عندك، اكتب هكذا، واترك الدفتر في هذا الوضع". ثمّ يرتفع صوت الأولاد عالياً، وهم يتناقشون بحدّة، وكل يريد أن يؤكد، أنه يعرف أحسن من الآخر، ولو كانوا يتشاجرون لأمر آخر، كان أبوهم يرفع صوته عليهم؛ أما هنا، فكان يستمع بانتباه مع احترام لرأي كل منهم كمعلمين حقيقيين. أمّا سوفانكول، فقد

كان يتعذب حتى يكتب كلمة، فالعرق يتصبب من وجهه، وكأنه لم يكتب أحرفاً، بل يقف عن الدراسة، ويلقمها الغش بغزارة. وهكذا كان الأب والأولاد يجتمعون في كومة واحدة حول الدفتر أو كتاب الأبجدية، أنظر إليهم، وأتابع تصرفاتهم، حتى أغرق في الضحك...

- يكفي يا أولاد، اتركوا والدكم في هدوء. هل ترغبون أن تكونوا معلمين له، يا ترى؟ وأنت يا سوفانكول لا تركض خلف أرنبين في وقت واحد - فاختر واحدة من اثنتين - إما أن تصبح معلماً، أو سائق جرار.

غضب سوفانكول. لم يعد ينظر؛ هز رأسه، وأخذ يتنفس بحدّة.

- إيه، يالكِ! الأمر هنا في غاية الأهمية، وأنتِ تسخرين!

وبكلمة واحدة - ضحكت، ومهما يكن من أمر، لقد حقق سوفانكول ما كان يصبو إليه.

- في الربيع المبكر، ومجرد سقوط الثلج الأول - ركد الجو نحو الاستقرار - سمع في بداية القرية صوتاً وفرقعة لم نسمعها في القرية من قبل، وعبر طرق القرية استنفرت قطعان المواشي، وأخذت تعدو الخيول بسرعة قصوى، هرعتُ خارجة من البيت. وكان هناك، خلف الحواكير يسير الجرار، ذو اللون الأسود وهو ينفث الدخان فوقه. اقترب بسرعة نحو ساحة البلد المركزية، وتجمهر الناس حول الجرار من كل أنحاء القرية، ومنهم مَنْ أسرع على حصانه، ومنهم مَنْ سار مشياً على الأقدام، والجميع يصرخون، ويتدافعون كما لو أنهم في السوق العام، وأنا أيضاً ركضت مسرعة مع جيراني. شاهدت في المقدمة أولادي - جميعهم الثلاثة - كانوا يقفون إلى جانب والدهم فوق الجرار، وهم يتماسكون واحداً بالآخر، وكان الأولاد في الشارع

يصفرون بكل ما أوتوا من قوة صوتية، ويقذفون بقبعاتهم عالياً، معبرين عن البهجة، أما هم فكانوا يقفون فخورين، وكأنهم أبطال لا أحد يساويهم؛ أما وجوههم، فقد كانت تشع زهواً، آه؛ يا لهم من مشاكسين! لقد هربوا مني في الصباح نحو النهر، دون أن يخبروني بأنهم سيذهبون للقاء والدهم مع الجرار، لقد خافوا أن أمنعهم من الذهاب، وحقاً لو علمت بما قرروا لمنعتهم خوفاً عليهم - ربما حصل ما لا يتوقعه الإنسان؟

- وصرخت لهم، وهم واقفون إلى جانب أبيهم:

- قاسم، ماصلبيك، جاينالك، سأريكم! وانهمرت دموعي بلا توقف! - ولكن تحت وقع هدير محرك الجرار وقرقعته، لم أسمع أنا صوتي الخاص، فكيف لهم أن يسمعوا مناداتي. أما سوفانكول فقد تفهم قلقي، فابتسم، وهزَّ رأسه مطمئناً، وكأنه يقول: لا تخافي، لن يحصل شيء؛ أما هو فقد كان يجلس خلف المقود فخوراً، سعيداً، وبدا أكثر شباباً. وحقاً، لقد ظهر ساعتئذٍ شاباً وفارساً أسود الشاربين، وعند ذلك، ولأول مرة، اكتشفت كيف يشبه الأولاد أبيهم. لقد كان من الممكن حسبان الأربعة الجالسين فوق الجرار وكأنهم أخوة، وخاصة الابن الأكبر والثاني، قاسم وماصلبيك، يشبهان والدهما كثيراً في كل شيء وخاصة في وجناتهم السمراء كالعسل القاتم؛ أما مدللي الصغير جاينالك فكان يشبهني أكثر من أبيه، فهو ليس أسمراً مثل والده، بل أكثر بياضاً، وعيناه سوداوان وفيهما الود والشفافية.

لم يتوقف الجرار، وخرج من القرية، وسرنا جميعاً متدافعين خلفه، وكان شيئاً ممتعاً بالنسبة لنا رؤية كيف سيحرث الجرار الأرض؟ وعندما هبطت السكك الثلاث الضخمة، وأخذت تشقُّ

الأرض البكر وأخذت تقلب التراب كأعراف الخيول، حتى غاصت السكك كلياً، وأخذ التراب الناعم مع بعض الكتل الترابية يتناثر حول السكك وسار الناس في إثر الجرار، وهم يتدافعون متسابقين على ظهور خيولهم التي أخذت تشخر بقوة، وهي مستفزة القوى لرؤية هذه الآلة الغريبة، ولكنني لم أفهم ما حلّ بي آنذاك، أخذت أتخلف تدريجياً عن الناس المسرعين خلف الجرار، حتى أصبحت وحيدة، وقفت في مكاني، ليس بإمكاني السير. كان الجرار يبتعد، ويبتعد، وأنا واقفة عاجزة أنظر في إثره، والشيء الوحيد الذي أعرفه، أنني كنت ساعتئذٍ أسعد إنسانة في الوجود! ولم أعلم بحقيقة الشيء الذي كان يبعث السرور في كياني، ربما لأن زوجي سوفانكول كان أول إنسان أتى بالجرار إلى القرية، وربما لأنني في ذلك اليوم شاهدت كيف يشبه أولادي والدهم بكل شيء، وقد كبروا. نظرت طويلاً في إثرهم، وبكيت وأنا أهمس: "حبذا لو بقيتم يا أولادي دائماً إلى جانب والدكم هكذا! وحبذا لو كبرتم بالسمات الإنسانية التي يتمتع بها، ولا يلزمني أكثر من هذا...!"

هذه كانت أهمّ لحظة، وأجمل فترة في حياة الأمومة وكنت سريعة في أي عمل يوكل لي، وكنت أحب العمل كثيراً، وإذا كان الإنسان سليماً، وإذا كانت يداه ورجلاه سليمتان - فماذا يوجد أفضل من العمل؟ وهل من سعادة أجمل من سعادة العمل؟ سارت الأمور، وكبر الأولاد مع مرور الزمن بسرعة، وبشكل غير ملاحظ ونمت فيما بينهم صداقة جميلة، وكأنهم بمثابة الثلاث حورات التي زُرعت في وقت واحد، وكلّ منهم أخذ يحدّد مستقبله. فسار قاسم على إثر والده: فأصبح سائقاً للجرار، ثم سائقاً لحصادة، وعمل في إدارة دفة العمل في موسم حصاد في الكولخوزات المجاورة، في قرية زاريتشي،

وخاصة في كولخوز كاندي في منحدر الجبال، وبعد سنة عاد سائقاً للحصادة في قريته.

وبالنسبة لي كأم كلّ الأولاد متساوون، فكلّ واحد منهم حملته تسعة أشهر تحت قلبي، وعلى الرغم من هذا، فإن ماصلبيك كان أقرب لي من الآخرين، وافتخرت به دائماً. ربما لأنني اشتقت إليه عندما ابتعد عني كثيراً، فهو قد كسا ريشه مبكراً، وأول واحد طار من عشه البيتي. وكان يدرس في المدرسة منذ السنة الأولى بصورة جيدة، وكان يحبّ قراءة الكتب المتنوعة. فلا تطعميه، ولا تسقيه، ولكن كتباً أعطيه، وعندما أنهى المدرسة، سافر إلى المدينة للدراسة، حيث قرر الدراسة في معهد تعليمي كي يصبح معلماً.

أمّا الأصغر - جاينك - فقد كان شاباً جميلاً ولطيفاً للغاية، وثمة مسألة في حياته: لم يحب التواجد في البيت، ولم يعش فيه، لقد تم انتخابه في الكولخوز أميناً لمنظمة الكومسومول [1]، وكل يوم عنده اجتماع، وعقب كل اجتماع دورة تثقيفية، أو تنظيم جريدة الحائط، وغيرها من الأنشطة السياسية والاجتماعية، أنظر إلى وضعه، ويؤلمني أنه لا يستقر في البيت لا نهاراً ولا ليلاً، وهذا ما يغيظني، وكنت أقول له أكثر من مرة:

- اسمع أيها الضائع، لو أخذت فراشك ولحافك، ووسادتك، وأخذت غرفة في إدارة الكومسومول، وعشت هناك، واسترحت. وهل الأمر بالنسبة لك سيان، أين تعيش، بعيداً عن البيت، وعن والدك وأمك، كل هذا لا يهمك!

---

[1] منظمة الكومسومول - هي اتحاد الشباب الشيوعي ويبلغ عدده بحدود ثلاثين مليوناً من الشباب في كافة جمهوريات الاتحاد السوفيتي - المترجم.

أما سوفانكول كان يدافع دائماً عن ابنه. ينتظر حتى يرتفع صوتي عليه، عند ذلك يتدخل، ويقول بالمناسبة كلمات هادئة:

- لا تغضبي يا أمّ جانياك، دعيه يدرس الحياة مع الناس. فلو علمت أنه يضيع الوقت بلا فائدة، لكنت قد تدخلت وفركت رقبته كما يجب.

عاد سوفانكول إلى عمله السابق، ومن جديد أصبح رئيساً للعمل في الكولخوز، وحل مكانه كسائق على الجرار أحد الشباب الناشئين.

أمّا أهمّ شيء يجب قوله: قاسم لم يتأخر حتى تزوج، كانت زوجته هي الأولى، التي دخلت عتبة البيت. وكيف كان الأمر حتى تم ذلك، لم أسأل عن التفاصيل، لكن عندما عمل قاسم في الصيف في قرية زاريتشي تعرّف عليها، وأعجبا ببعضهما، وأتى بها من كايندوف. كانت عليمان فتاة شابة جبلية سمراء. في البداية سررت جداً أن نصيبنا كان جيداً، وحصلنا على كنة جميلة وجيدة، ثم أحببتها بسرعة، ولقد تطابقت أخلاقها مع أخلاقي، ربما كنت أحلم بأن أنجب ابنة، وعشت هذا الحلم طويلاً. وربما ليس لهذا وحده، بل لأنها كانت هي فهيمة، وتحبّ العمل، شفافة كالزجاج، وهكذا أحببتها كابنة خاصة بي، وكثيراً من الحموات لا ينسجمن مع كنائنهن؛ أما أنا فقد كنت سعيدة، وأسعفني الحظ، أنّ هذه الكنة في البيت، كانت سعادة كبرى. وبالمناسبة أنها سعادة حقيقية، وليست وهمية، هكذا أعتقد - أنها ليست مصادفة تقع على رأس الإنسان، كالشتاء الغزير في يوم صيفي. ولكنها فرصة سعادة تأتي للإنسان دون أن يعلم بها، وهذا يتعلق بالإنسان، وكيف يتعامل مع الحياة، وكيف يتعامل مع الناس من حوله؛ فالإنسان حبة - حبة،

وخطوة - خطوة يتقدم باتجاه حظه، ويكمل الواحد الآخر وعندما يتم التوافق تحل ما نسميها السعادة.

في تلك السنة، عندما جاءت عليمان كان صيفاً حاراً لا ينسى على الإطلاق. نضج القمح مبكراً، كما كان الفيضان مبكراً للنهر، وقبل عدة أيام من البدء بالحصاد سقطت أمطار غزيرة في الجبال، وكان واضحاً، ومن بعيد، كيف ذاب الثلج بسرعة في قمم الجبال، كما يذوب السكر! ثم بدأت المياه تسيل نحو المنحدرات والبرك بقوة حتى بدت الرغوة الصفراء من فوقها، وحملت إلى الأماكن الضحلة بعض شجيرات السرو من أعالي الجبال، وأخذت تلقي بها بقوة من فوق الكسور الجبلية عبر الشلالات، وخاصة في الليلة الأولى، لقد كان كلّ شيء مخيفاً حتى مطلع الفجر، حيث أخذ النهر يذهب بعيداً عند المنعطف. وفي الصباح نظرنا إلى الجزر القديمة، فلم نجد لهن أثراً، إذ غطتها الأمطار كلياً.

أمّا الطقس فقد كان دافئاً. ونضج القمح بالتساوي، أخضر في الأسفل، وأصفر في أعالي السنابل، وفي ذلك الصيف، كانت السهول مليئة بالمحاصيل، حتى يصعب على الإنسان أن يرى نهاية للحقول التي تموج بالقمح حتى الأفق البعيد. لم يبدأ الحصاد بعد، ولكننا قمنا بتهيئة المدخل للحصادة مسبقاً، وحصدنا الزوايا عند المنعطفات التي يصعب على الحصادة الوصول إليها، وكنت مع عليمان نعمل سوية وإلى جانب بعضنا، حتى أن بعض النساء كن يعبنني في هذا ويقلن:

- يكفيك عملاً، عليكِ أن تبقي في البيت كسيدة، ولك هذا أفضل من أن تتسابقي في الحقل مع كنتك، عليك أن تقدري نفسك، وتعيشي بكرامة...

أما أنا فلم أكن أفكر هكذا، فأي احترام سأحصل عليه فيما لو جلست في البيت... إنني لا أرضى لنفسي أن أجلس في البيت عاجزة، فأنا أحب الحصاد.

وهكذا عملنا سوية مع عليمان. وعندما لاحظت ذلك، الذي لن أنساه مطلقاً بالنسبة لعليمان، في نهاية الحقل، وبين السنابل التي تمتد على الأطراف نمت في تلك الفترة أزهار الخبيزة البرية، التي كانت طويلة حتى قمة رأس عليمان، وكانت أزهارها بيضاء ووردية، وتم جمعها بالمناجل مع القمح، ولم تمضِ دقائق حتى جمعت عليمان باقة من الخبيزة بأزهارها المتنوعة، وابتعدت عني قليلاً، وبسرية لطيفة، أخذت أتابعها دون أن تلحظني، وأفكر في قرارة نفسي: ماذا ستعمل بهذه الباقة؟ ركضت نحو الحصادة، ووضعت الأزهار على درجات الصعود، وعادت مسرعة إليَّ، بينما كانت الحصادة تقف جاهزة للبدء بالحصاد على حافة الطريق، تنتظر الأمر للبدء بالحصاد. ولم يكن على متنها أحد، حتى قاسم ذهب إلى مكان ما.

تظاهرت وكأنني لم ألحظ ما فعلت، حتى لا تخجل مني - إنها كانت خجولة جداً، أما في داخلي فلقد شعرت بالسعادة: سررت لأنها تحب قاسم زوجها، هذا شيء جيد، وشكراً لك يا عليمان، يا كنتي العزيزة، شكرتها في نفسي. وحتى هذه اللحظة أتذكر كيف كانت في تلك الساعة، في منديل أحمر، وفستان أبيض، تحمل باقة كبيرة من زهر الخبيزة البرية، وجنتاها ورديتان أيضاً، وعيناها تشعان بكل سعادة لما فعلته. هذه هي سعادة الشباب! وكانت عليمان بريئة خجولة، كانت تحب جمع الأزهار كطفلة صغيرة. وفي أيام الربيع والثلج مازال أكداساً على الأرض، كانت تعود من الحقل وفي يدها باقة الأزهار، التي تنمو تحت الثلج... إيه، يا عليمان!

في صباح اليوم التالي بدأت الحصادة بجمع المحصول، وكان عيداً عند الفلاحين، وفي هذا اليوم لم أرَ وجه فلاح كئيباً متشائماً. لم يعلن أحد ما عن هذا العيد، ولكن يمكن أن تلمسه فهو يعيش في كل الناس، وتلاحظه في كل واحد على حدة: في مشيته، وصوته، وفي أعين الناس جميعاً... وحتى في قرقعة العربات، وفي عدو الخيول الشبعى يعيش هذا العيد، ويظهر في كل الجو العام. وفي حقيقة الأمر، في اليوم الأول من موسم الحصاد لا أحد يعمل كما يجب، فتسمع الأحاديث المتنوعة، والطرف، وحتى يقوم شباب القرية ببعض الألعاب. ففي صباح ذلك اليوم، عمَّ الضجيج في كل مكان، وكانت حركة الناس كثيفة، وأصوات غوغائية كانت تعم الطرقات والساحة العامة. ولكن الفرح الحقيقي والصخب كان لدينا، حيث نقوم بجمع المحصول بأيدينا؛ لأن عدد الشباب ذكوراً وإناثاً كان كبيراً، فيلق كامل، والشعب عندنا جريء ومرح. وعندما ركب قاسم في هذه الساعة على دراجته التي قدمت له جائزة من إدارة الكولخوزات لتفوقه بالعمل، قامت البنات المشاكسات بتوقيفه على الطريق وهنَّ يقلن له بمرح:

- إيه! يا سائق الحصادة، انزل عن الدراجة، وأنت لماذا لا تسلم على النساء، هل تكبرت علينا، ولم تعد تعرفنا؟ انزل وانحنِ احتراماً لنا، وخاصة أمام زوجتك!

تدافعت النسوة حوله من كل جانب، وأجبروا قاسم أن ينزل عن الدراجة، وينحني أمام زوجته عليمان ويطلب السماح منها، وهو يقول ما يخطر على باله:

- سامحوني أيّتها النساء الحبيبات، لقد أخطأت بحقكن، من الآن وصاعداً سوف أسلم عليكن، وأنحني أمامكن من بعيد.

ولكن قاسم لم يتخلص منهن بهذا، إذ قلن له:

- الآن عليك أن تركبنا على الدراجة، كالنساء الجميلات في المدن، حتى تسرع بنا كما يجب، ويليق!

وهكذا أخذ بعضهن يجلسن على الدراجة، واحدة بعد الأخرى، والأخريات يركضن خلف الدراجة فرحات، وحبذا لو جلسن على الدراجة بهدوء، ولكن أخذن يقفزن ويضحكن، ويصرخن كالجنيات!

بالكاد تمالك قاسم إرادته من شدة الضحك، ولم يسقط إلى الأرض وهو يرجوهن:

- يكفي يا بنات، اتركنني، أذهب إلى عملي، يا لكنّ من شيطانات!

في نهاية الأمر لم يتوقفن، فغضب قاسم، وقال جاداً، بعيداً عن المزاح:

- يا لكنّ! هل جئتن إلى هذه الدرجة! الندى قد جفّ عن القمح، عليَّ أن أشغل الحصادة، وأنتن هنا تشاكسن! هل أتيتن للعمل أم للمزاح؟ اتركنني وشأني!

كم كان هناك من ضحك في هذا اليوم! أما السماء فلقد كانت صافية، زرقاء، والشمس كانت تشع بكل ما لديها من نور!

بدأنا العمل، وأخذت المناجل تلمع، أخذت حرارة الشمس تشتد تدريجياً، وانتشرت زيزان الحصاد في كل السهول. ومن الصعب أن يعمل الإنسان طيلة النهار في الحصاد إن لم يكن متعوداً، ولكن عندما يتعود الإنسان يصبح الأمر عادياً. ولكن المزاج الحسن الذي تكوّن عندي في صباح هذا اليوم جعلني أتناسى الشعب، حتى شعرت أن روحي وعالمي يتسعان لقضايا كثيرة، حتى المتعبة لا تؤثر عليَّ.

وكل ما كنت أشاهده، وكل ما كنت أسمعه وأحسه، كان يبدو، وكأنه قد كان لي ولسعادتي.

وبدا كل شيء من حولي قد مُلئَ بجمال خارق وسعادة قصوى، ومن حسن حظي كتب لي أن أرى، كما قال أحدهم، ربما، كان سوفانكول: "إلى أين تغوصين في أمواج القمح العالية؟ كان من الممتع جداً أن يسمع الإنسان رنين المناجل، وحفيف جني القمح، وحفيف سقوطه على الأرض، ومن الممتع أن يعيش لحظات فرح وعمل، كلمات وضحك الناس من حولنا، وثمة شعور أمومي هائل عندما مرت بجانبنا حصادة ابني قاسم وغطت على كل شيء آخر بصوتها الرهيب، وقف قاسم عند دفة قيادة الحصادة، وكان يضع كف يده تحت حزمة القمح الصافي ويقربه كل مرة إلى وجهه، ويشم رائحة القمح الطازج. وبدا لي الأمر وكأنني، أنا شخصياً، أشم رائحة القمح الدافئ، التي تختلط مع رائحة حليب القمح الناضج الذي يسكر الرأس من طيب أريجه. وعندما توقفت الحصادة مقابلنا، نادى قاسم وكأنه يصرخ من أعلى الجبل:

- إيه، أسرع أيها الخيّال! لا تتأخر!

أمسكت عليمان إبريق العيران وأسرعت إليه، وهي تقول:

- لن أتأخر، سأحمل له العيران كي يشرب!

أطلقت رجلاها للهواء راكضة نحو زوجها الجالس عند دفة قيادة الحصادة واتجهت إلى الجانب الآخر من الحصادة، فتاة جميلة، رشيقة في ريعان شبابها في منديل أحمر، وفستان أبيض، وبدت وكأنها لا تحمل في يدها إبريقاً من العيران، بل أغنية رومانسية لزوجة محبة. فكل شيء فيها كان ينطق بالحب. وأنا بدوري أخذت أفكر بصورة عفوية: "لو كان سوفانكول قريباً منا لشرب العيران أيضاً" -

وأخذت أنظر من حولي عسى القدر أن يرسله، ولكن أين من الممكن أن يجده الإنسان!. فعمله رئيساً للعمل يتطلب منه أن يبقى طيلة النهار فوق سرج حصانه يعدو من جهة إلى أخرى، وأعماله لا تعد ولا تحصى، حتى فوق رأسه.

في المساء كان قد حضّر لنا الخبز من القمح الجديد في موسم هذه السنة. ولقد تم تحضير الدقيق مسبقاً من عدة جرز من القمح الذي قمنا بحصده قبل أسبوع. لقد حظيت في السنوات الماضية أن أحضر مثل هذه المراسم، وأتناول كغيري من الآخرين قطعة من الخبز الجديد، وكل مرة عندما أقدم قطعة الخبز من فمي أشعر بقدسية هذه التقاليد. وهذا الخبز، بغض النظر عن لونه الأسمر، ولزوجته الخفيفة، وكأنه قد تم تحضيره من عجين طري للغاية، ولكن من غير الممكن مقارنته مع أي خبز آخر في الكون، وهو متميز بطعمه الحلو قليلاً، ورائحته الرائعة، وغير العادية: إنه يفوح برائحة الشمس، وكذلك شيء من رائحة القش الذي نما عليه، مع شيء خفيف من الدخان، ورائحة أيادي العاملين على الحصادة.

وعندما حضرت النساء الجائعات بعد يوم عمل إلى منطقة الاحتفال، وأخذن مكاناً لهن إلى جانب القناة فوق الأعشاب النامية على جانبيها؛ أما الشمس فقد أوشكت على الغروب، وكانت تشع على القمح في مناطق بعيدة إلى الغرب. أما هذه الأمسية كما يبدو واضحاً وطويلاً. اجتمعنا كلنا إلى جانب اليورتا [1]، أما بالنسبة لسوفانكول لم يحضر بعد، لقد وعد بأنه سيحضر؛ أما جاينك،

---

[1] اليوتا - خيمة تقام على الطريق للرحل في آسيا الوسطى، وهي بمثابة خان يلجؤون إليه لاتقاء شر الثلوج، أو الشمس الحارة، - المترجم.

فلقد اختفى كما يفعل دائماً، لقد ركب على دراجة عائدة إلى مقر الإدارة، وكان عليه أن يعلن شيئاً في الجريدة الحائطية.

فرشت عليمان منديلاً فوق العشب، ووضعت عليه عدة تفاحات نضجت مبكراً، كما وضعت عدة أرغفة، وسكبت في كؤوس الكفاس البارد [1]. حضر قاسم، وغسل يديه في القناة، وجلس بهدوء إلى حافة المنديل الممدود على الأرض، أخذ يقسّم رغيف الخبز إلى قطع متساوية تقريباً.

- ما زال الخبز ساخناً، - قال قاسم، - خذي يا ماما، باركي كأول إنسان يذوق خبز العام الجديد.

لقد باركتُ هذا الخبز الجديد، وعندما أخذتُ بأسناني قطعة من الخبز بدا لي أريج غير معروف سابقاً، لقد كان هذا رائحة أيدي وسائق الحصادة. إذ ظهرت في الخبز الجديد رائحة الحديد والكيروسين الساخنين تحت أشعة الشمس. أخذت قطعة أخرى، وكانت تفوح منها رائحة الكيروسين أيضاً، ولكنني لم آكل في حياتي خبزاً ألذ من هذا؛ لأنه كان خبزاً منتجاً من قبل ابني، ولقد حمله إلينا على يديه كسائق للحصادة، إن هذا الخبز كان من صنع أبناء الشعب - وأولئك الذين زرعوه ورعوه - وأولئك الذين يجلسون في هذه الساعة مع ابني فوق الأرض، إنه الخبز المقدس! هذا ملأ قلبي فخراً واعتزازاً بابني، ولكن لم يعلم أحد بكل ما دار في عالمي. وفكرت في تلك اللحظة أن سعادة الأم تتبع من سعادة الشعب، كما يرتبط الساق بالجذر. وليس من الممكن أن يكون مصير أمٍ بدون مصير الشعب، وها أنا ذا الآن أقسم أنني لم أبتعد قيد أنملة عن هذا

---

[1] الكفاس - منقوع الخبز الأسمر الذي يخمر قليلاً ويعطي نكهة منعشة.

الاعتقاد، ومهما عانيت، ومهما عاملتني الحياة بقسوة في بعض الأحيان. فالشعب يعيش ولهذا فأنا أعيش...

في ذلك المساء سوفانكول تأخر كثيراً في حضوره، إنه كان مشغولاً جداً. وعمَّ الظلام وهناك عند المنحدر للنهر كانت مجموعة من الشباب، أشعلوا المنار في شعلة جميلة وأخذوا يصدحون بأغانٍ متنوعة، وبين أصواتهم عرفت صوت ابني جاياك.. فهو يعزف على الأكورديون، سمعت صوت ابني المعروف، وكنت أقول له في نفسي: "اصدح يا بني، وغنِّ ما دمت شاباً، فالأغاني تنقي روح الإنسان، وتقرب الناس من بعضهم. وفيما بعد، وفي زمن ما، ستستمع إلى هذه الأغنية وستتذكر أولئك الذين غنوا معك هذه الأغنية في هذه الأمسية الصيفية، ومن جديد عدت للتفكير بأولادي - ربما هذه هي طبيعة الأم - وفكرت بأن قاسم قد أصبح إنساناً واعياً، وقادراً أن يشق طريقه في الحياة بنفسه. فلقد قرر مع عليمان أن يعيشا في بيت مستقل، وأخذا ينسجان عشهما الأسري، أي باشرا ببناء بيت، وسوف يشترون ما يلزمهم للحياة، وهناك سوف يلدون لنا الأحفاد. فلن أخاف على قاسم مطلقاً؛ إنه عامل نشيط، يشبه والده، لا يعرف الكسل والخمول، لقد عمَّ الظلام في تلك الساعة، وهو ما زال يعمل على الحصادة - بقي قليلاً وسينهي العمل. أما الجرار فقد كان يسير إلى جانب الحصادة. وكانت عليمان معه، ففي وقت الكدح والعمل حبذا اللقاء ولو لدقيقة، وستكون الدقيقة باهظة الثمن!

تذكرت ماصلبيك، وهنا اكتئبت قليلاً. ففي الأسبوع الفائت أرسل لنا رسالة، حيث يقول إنه في هذا الصيف لن يتمكن من الحضور إلى البيت في العطلة الصيفية، لقد أرسلوه مع الأطفال إلى

منطقة بحيرة إيسك - كول [1]، إلى معسكر الطلائع للتطبيق العملي. وما عليك أن تفعل، طالما اختار هذا العمل لنفسه - هذا يتناسب مع مزاجه ولا يهم أين سيكون، والمهم أن يكون سليماً - هكذا كنت أفكر.

عاد سوفانكول ليلتها متأخراً، أكل بسرعة، ثم سافرنا سوية إلى البيت ففي الصباح كان من الضروري تنظيم الأمور المنزلية، وكان من الضروري أن ترعى شؤون الحيوانات، ولهذا طلبت مساعدة الجارة عيشة، رغم أنها كانت تمرض كثيراً. فتعمل نهاراً في الكولخوز، وتبقى يومان في البيت. لقد كانت مريضة بأحد الأمراض النسائية، وكان ظهرها يؤلمها جداً، ولهذا اكتفت بولد واحد اسمه بيكتاش.

عندما عدنا إلى البيت كان الليل قد أرخى سدوله، وأخذت الريح تهب بشدة، وكان ضوء القمر يتأرجح حسب حركة العجلات، لقد احتدما مع قسوة الاندفاع مع أريج روائح الموسم الذي قد نضج، ولقد ارتفع في الهواء بدون صخب غبار كثيف، ودافئ، ومن خلال الهواء كان يملأ الجو عطر زهور المنطقة. لقد كان شيئاً ما معروفاً وأليفاً في هذه الليلة. لقد كان شيء ما يقلق روحي. كنت أركب على الحصان خلف سوفانكول، على فرش السرج، ولقد كان يقترح عليَّ أن أجلس في المقدمة، ولكنني كنت أحب أن أركب خلفه، وأن أتمسك بحزامه القوي. وكنت أحس كيف كان يجلس تعباً فوق سرج الحصان، نادراً ما يتحدث بعد تعب طيلة النهار، وكيف كان ينكس رأسه نعساً بين الحين والآخر، ثم ينتبه ويضرب الحصان بكعبي قدميه. كل هذا كان غالياً بالنسبة لي، نظرت إليه وقد

---

[1] إيسك - كول - بحيرة في جمهورية قرغيزستان - وغالباً ما يذكرها الكاتب أيتماتوف في أعماله الأخرى كرواية "النطع" الموسوعية - المترجم.

حنى ظهره، ونكس رأسه قليلاً وفكرت بشيء من الحزن، وقلت: "قد أخذ من الكبر ما أخذته يا سوفان، نعم، إن الوقت يمضي بسرعة، وليس من العبث أن نقول: إننا نحيا الحياة ونحس بها. وهذا هو الرئيس في الحياة، والزمن يمضي بسرعة. فمنذ فترة قصيرة كنا شباباً. إن السنوات تمر بسرعة، ورغم ذلك فالحياة ما زالت ممتعة. كلا، فما زال الوقت مبكراً حتى نستسلم، فلدينا الكثير من الأعمال، وأرغب في الحياة معك أكثر ما يمكن...

انتصبت في مكاني، ورفعت رأسي عالياً، نظرت إلى السماء، وفي صدري ارتعد شيء ما: في الأعالي، وبين النجوم الواضحة، وعبر السماء العالية شاهدت كما رأيت آنذاك، درب التبانة وهو مفروش باللون الفضي لمسافة طويلة وعريضة، ومن جديد عادت إليَّ أفكار غريبة، قد كان أحد ما، في واقع الأمر قد حمل كمية هائلة من القش ومر من هناك، وقام بنثر هذا القش من المحصول الجديد على درب التبانة وهناك في الأعالي، كانت عدة قشات ذهبية اللمعة، بمثابة الحسكة والعصافة، قد تحركا في مكانهما، وكأنهما قد اهتزا تحت لمس النسيم، وكان بالإمكان مشاهدة الحبيبات المتناثرة حول العصافة، "يا إلهي" - تعجبت للأمر، لقد تذكرت كل شيء: ليلتنا الأولى وحبنا، ومرحلة الشباب، وتلك الحصادة الهائلة، التي كنت أحلم بها. هذا يعني أن كل شيء قد حلمنا به قد تحقق! فالأرض والماء أصبحتا لنا، لقد حرثنا الأرض، وزرعناها، وحصلنا على القمح مباشرة - هذا يعني قد تحقق كل ما حلمنا به في الليلة الأولى. بالطبع لم نكن نعرف أنه ستحل أوضاع جديدة، وتتغير الأحوال والحياة عامة إلى حياة جديدة، وهذا يعني أن أحلام الإنسان البسيط، قد تطابقت مع أمنيات الزمن، والتطلعات نحو الخير

والعدالة، فهذه الأفكار استحوذتني كلياً، وكنت أجلس خلف سوفانكول بلا حراك، وابتعدت بأحلامي، وبعد ردهة من الزمن نظر سوفانكول إليَّ، وقال:

- ماذا حلّ بك يا تولفوناي، هل أخذك النعاس؟ حقاً إنك تعبت اليوم، لا بأس سنصل قريباً إلى البيت، وأنا أيضاً تعبت جداً. وصمت سوفانكول برهة وسألها: هل ترغبين أن نتحول إلى الطريق الجديدة ونسير عليها؟

- لنتحول على الطريق الجديد، - وافقت بسرعة.

الطريق الجديدة لم تكن قد أنشئت على تلك الأرض الخالية، حتى وصلت إلى مدخل القرية، فهذه الطريق لم تكن موجودة في الربيع عندما قامت إدارة الكولخوزات بتوزيع مقاسم على الشباب الذين تزوجوا حديثاً. وأخذ كل منهم يحفر الأساسات، ويبني الجدران. وقاسم وعليمان، قد حصلا على قطعة أرض هنا، ولهذا أردنا أن نلقي نظرة كيف تجري الأمور عندهما، فخلال النهار نادراً ما يجد الإنسان في فترة الحصاد فرصة، ولو لوقت قصير ليقوم ببعض الأعمال الخاصة به، فقاسم وعليمان وجاياك، قد صنعوا كمية كبيرة من الطوب، والآن قد يبست، وقاموا بجمعها في أكوام. هذا ولقد قاموا في الأسبوع الماضي بحفر القنوات اللازمة تحت الأساس، وقاموا بنقل الأحجار العادية غير المنحوتة لتجهيز الأساسات. حسناً أنهما قاما بهذا قبل الفيضانات، والأحجار موجودة الآن في كومة كبيرة وسط الساحة، ولقد شعر سوفانكول بالراحة والطمأنينة لعمل قاسم وعليمان.

- شيء جيد، البداية موجودة، الحجارة كثيرة، سيبقى عندهم، قال سوفانكول.

- عندما تنتهي من الحصاد سنقوم ببناء الجدران، ونجهز السقف، وتبقى القضايا البسيطة سوف ننهيها تباعاً فيما بعد في الربيع القادم، وعلى أي حال من غير الممكن أن نكمل قبل الشتاء، وكيف تفكرين أنت يا تولغوناي، هل صحيح ما أقول؟

- صحيح؛ - أجبته بهدوء، - أما جاناك وكأن في رأسه فوضى، لا يستقر على شيء، يقول إنهم توصلوا في الاجتماع إلى قرار: تسمية الشارع الجديد كومسومولسكايا [1]، بينما عليمان تضحك منه، وتقول: "أنت مثله، جاناك مثل نصر الدين، المولود الذي لم يُخلق بعد، وهو قد جهز اسماً له. فأنت تزوج أولاً، وابن بيتاً، وشق الطريق، ثم أطلق اسماً عليه"؛ أما جاناك فيقول مجيباً لها: "أنت لا تعرفين شيئاً".

أما سوفانكول فقد هزّ رأسه ضاحكاً، ثم قال:

- حقاً، إنه هكذا، منذ ولادته كان يستعجل الأمور؛ أما ما يخص تسمية الشارع فإنه فعل خيراً، وكان محقاً. إن هذه البنايات الجديدة تقوم على أكتاف الشباب الذين سيسكنون فيها لاحقاً. وها هو عددنا يزداد باستمرار، ومع كل يوم يأتي أناس جدد، ويخلق الكثير من الأطفال في قريتنا، حيث لم تعد تتسع للجميع، ومن الضروري أن نشق الطرق الجديدة، ونبني الكثير. هذا شيء جيد وعندما ستكون الشوارع جاهزة، وسترين أن ابنك سيكون على حق.

في تلك الساعة، عندما كنا نتحدث عن هذه الأمور، لم نكن نعلم أن هذه الليلة ستكون أكثر ليلة ملعونة بين الليالي التي عشناها.

---

[1] كومسومولسكايا - كلمة مشتقة من اسم كومسومول أي /اتحاد الشباب الشيوعي/ الذي كان كمرحلة أولى في انتساب الشباب السوفييت للحزب الشيوعي في عموم الاتحاد السوفيتي آنذاك -المترجم.

3

- ارفعي رأسك يا تولغوناي، وهدئي من روعك.

- حسناً. وماذا بقي لي أن أفعل؟ سأحاول، هل تذكرين يا أرضنا العزيزة الغالية ذلك اليوم؟

- أذكر... فأنا - الأرض- لا أنسى أي شيء، يا تولغوناي. فمنذ تكوين الدنيا إن آثار جميع العصور والقرون في كياني، يا تولغوناي. وليس كل التاريخ في الكتب، وليس كل التاريخ في ذاكرة الناس - فكلها في كياني، وحياتك أنت يا تولغوناي أيضاً في صلبي، في قلبي. فأنا أسمعك بانتباه يا تولغوناي، فاليوم هو يومك.

4

في صباح اليوم التالي، وقبل بزوغ الشمس، كنا قد بدأنا العمل. ففي ذلك اليوم شرعنا نجمع المحصول في نسق جديد من القمح على حافة منحدر النهر مباشرة. ولقد كان عرض هذه الرقعة من الأرض لا يسمح للحصادة أن تدور للخلف، وكانت السنابل قد يبست، فالحقل يجف من أطرافه التي تنضج قبل الوسط وعندما التففنا، ونحن نعمل كسلسلة، وقمنا بحزم القمح على الجانبين، لاحظنا كيف ظهر خيّال من خلف البيوت المائلة خلف النهر، وهو ينهب الأرض نهباً، تاركاً خلفه ذيلاً من الغبار، وكان حصانه يعدو بسرعة بغض النظر عن وجود الشجيرات والحشائش والحجارة. وكأن أحد ما يطارده بقوة، حمله الحصان الجامح إلى ضفة النهر مباشرة. أما الخيّال فلم يحرف الحصان جانباً عن الماء، بل أجبره على اجتيازه الحجارة إلى النهر. استغربنا جداً هذا الأمر، ورفعنا أظهرنا متابعين

هذا الخيّال: فأية ضرورة تجبره على زج نفسه مع حصانه في ماء النهر مباشرة، مع العلم أن النهر في فترة الفيضان، وكان بإمكان أن يحرف حصانه إلى الجسر القريب ويجتاز النهر بسلامة؟ بدا الخيّال من بعيد وكأنه شاب روسي، دفع بحصانه إلى ماء النهر، ونحن جمدنا في مكاننا: هل هو قرر الانتحار؟ فهل من الممكن في هذا الوقت أن يمازح أي كان النهر في أوج فيضانه، وليس بإمكان الحصان، ولا الجمال أن تقاوم جريان النهر ويصعب أن تجمع عظامها!

- إي! إي! إلى أين أنت سائر، قف! لا تتقدم أكثر! صرخنا جميعاً بصوت واحد.

بينما صرخ هو لنا بصوت، وهو يلوح بيديه، ولكن صخب المياه القوية في النهر عند المنحدر حال دون سماع ما قاله. ووصل إلى أسماعنا:

- ... أ - أ - أ - أ...

لم نفهم شيئاً. وعند ذلك أجبر حصانه الأشقر على الشب، وهو يضربه بسوط بقوة، وقذف به في التيار المائي المندفع، ابتلع ماء النهر الغزير الخيّال مع حصانه، ولم نرَ سوى رأس الحصان بين الفينة والأخرى يبرز لحظة، ويختفي لحظات بين التموجات العالية والرواة، وقد انتصبت أذناه مستنفرة عالياً، وبان بوزه مكشراً؛ أما الخيّال فكان يتمسك بعرف الحصان بشدة. وطارت القبعة التي كانت على رأسه بعيداً، وأخذت تدور فوق التموجات، أخذنا نركض على حافة الانكسار النهري. وأخذت المياه الخيال بعيداً، ولكنه حاول التلاؤم مع التيار، وحاول جاهداً التوجه إلى الشاطئ، وهنا قذف به التيار على الضفة بعيداً وخرج من الماء بالقرب من المطحنة، تنفسنا جميعاً

الصعداء، وأخذ البعض يشيد بشجاعة الخيّال ويمتدحونه: "يا له من عظيم!" وآخر قال: لم يقم بهذا لأمر بسيط، علينا أن نعرف ما أجبره على هذا.

- قال ثالث بانزعاج وسخرية: يا له من مجنون ثمل يلعب بروحه، وأنتم ستركضون خلفه!

هدأ الجميع. وكان من الضروري متابعة العمل. "حقاً ما يقول الأخير، فكرت في قرارة نفسي، - فالإنسان العاقل من غير الممكن أن يخاطر بروحه على هذا الشكل".

عندما توقف هدير صوت حصادة قاسم فجأة. وهو في هذا اليوم قام بتمريخ القطيع بالمياه إلى جانب المطحنة، - وأنا لم أعطِ لهذا أهمية: من الممكن أن شيئاً ما قد تعطل في الحصادة، ربما قشاط الحركة قد قفز من مكانه، أو سلسلة ما انكسرت، فللآلة أعطالها الكثيرة خلال العمل وكانت عليمان تحصد القمح بالقرب مني، وفجأة صرخت صوتاً قوياً ومخيفاً للغاية:

- ماما!

- هرعتُ إليها مسرعة، كانت تقف جامدة شاحبة صفراء، وقد سقط المنجل من يدها.

ماذا حلّ بك؟ هل لدغتك أفعى؟ - أخذت أسألها بلا توقف. التزمت الصمت، نظرت إلى تلك الجهة التي تنظر إليها بعينيها الشاخصتين الخائفتين الجامدتين، وإلى جانب الحصادة اعتلت صيحات وصراخ غير مفهومة، ومن كل الجهات، وعبر القمح الطويل كانت تركض نساء مع بعض الرجال، وأسرع الخيّالة من فوق أحصنتهم نحو الحصادة، والبعض أتوا واقفين فوق العربات، التي تجرها خيول جامحة يلسعها السائقون بسياط حادة.

- لقد حصل شيء ما يا ماما! - صرخت عليمان، وانطلقت تركض.

ثمة كلمات صرخ بها شخص ما بأعلى صوته، ومزقت أذني:

- شخص ما مزّقته شفرات الحصادة، أو وقع في مضارب الحصادة فقطعته إرباً إرباً! فلنركض!

كل النسوة هرعن راكضات خلف عليمان.

"احفظه يا الله، احفظه يا الله!" - كنت أكرر وأنا أرفع يدي إلى الأعلى، وأزيد من ركضي، وأقفز فوق القنوات، وقعت بعد أن تعثرت بشيء ما، وقفت بسرعة، لم أفكر بالآلام التي أصابتني، وعدت للركض بسرعة، آه، كيف كنت أركض آنذاك عبر القمح الطويل! أردت أن أصرخ بأعلى صوتي حتى تنتظرني عليمان، ولكن صوتي قد اختفى، وفقدته بشكل كامل.

عندما وصلت أخيراً، شاهدت حول الحصادة عدد غفير من البشر يصرخون ويضجون. لم أسمع شيئاً واضحاً، تقدمت إلى الأمام عبر هذا الجمع الكبير، وأنا أقول بحشرجة: "توقفوا! ابتعدوا عن طريقي!" أفسح الناس لي الطريق، وعندما شاهدت قاسم وعليمان يقفان جنباً لجنب بالقرب من الحصادة، اندفعت إلى ابني، وبصورة فجة، وبأياد مرتجفة. هرع قاسم للقائي، وضمني إلى صدره.

- الحرب يا أمي! - سمعت صوته، وكأنه الصدى قادماً من بعيد.

حدقت بوجهه، وكأنني لم أفهم معنى هذه الكلمة.

- الحرب؟ أنت تقول الحرب؟ - أعدت السؤال مرات.

- نعم، يا أمي الحرب قد نشبت - أجابني هو.

ورغم كل ذلك، لم أفهم، ماذا تعني هذه الكلمة، وما تتضمنه وما يقصد بها، وماذا خلفها؟

- كيف حرب؟ ولماذا الحرب؟ أنت تقول حرب؟ أعدت السؤال باستغراب.

- نعم يا أمي، الحرب قد بدأت، - أجابني قاسم.

ولكن، وحتى تلك اللحظة لم أعرف، ولم أدرك ما وراء هذه الكلمة.

- كيف حرب؟ ولماذا الحرب؟ أنت تقول حرب؟ - أعدت هذا، وأنا لا أفهم معنى هذه الكلمة الغريبة والمخيفة جداً، ثم جمدت في مكاني من الرعب، ثم بكيت من شدة صدمة الخوف من المجهول قبل دقائق، ومن الوقع القاسي لهذه الأنباء غير المنتظرة.

سالت الدموع على وجهي بلا إرادة، أما النسوة، فأخذن ينظرن إليَّ، وهنّ يبكين ويولولن بصوت عالٍ.

- أرجو الصمت فوراً! اصمتوا! - ارتفع من بين الجمع الكبير صوت رجل.

صمت الجميع دفعة واحدة، وكأنهن ينتظرن من هذا الرجل أن يقول شيئاً ما، وحبذا لو قال: هذا غير صحيح، ولكنه لم يقل شيئاً، ولم يقل أحد غيره كلمة ما. وعمّ الهدوء في السهل، وبرز على خلفية هذا السكون صوت هدير وارتطام المياه من جهة النهر. تنفس واحد من الحضور بصوت عالٍ، وتحرك بحدة. تنبه الجميع من حوله، ولكن لم ينبس أحد بكلمة ما. ومن جديد عاد الصمت ليعم السهل، حتى أصبح الإنسان يحس بالحر بشكل قوي، وأحسست كيف حام أبو فاس حول أذني مصدراً صوته الكريه. عند ذلك نظر قاسم إلى الناس الواقفين حوله، وقال بصوت خافت، وكأنه يتكلم مع نفسه:

- علينا الآن أن نسرع قدر الإمكان لجمع القمح، وإلا لبقي تحت الثلج وراح سدى - التزم الصمت، وفجأة نظر بسرعة إلى قائد

الحصادة، وأمره بحدة: لماذا تقف؟ شغل المحرك! وأنتم جميعاً، ماذا تنتظرون؟ لن نتمكن من جمع المحصول، في حال لم نسرع، وستعانون فيما بعد أشد عناء! هبّوا إلى العمل...!

تحرك الناس كلّ من مكانه، عند ذلك، رأيت الشاب الروسي من زاريتشي كان يقف مبللاً من رأسه حتى أرجله، حتى كان من الممكن عصر ثيابه، وكان يمسك الحصان الذي مال للسواد قليلاً بالمقود تحت بوزه عندما تحرك الناس من حوله، هب الساعي، وكأنه عاد لوعيه فجأة، ورفع رأسه الأشقر وأخذ يشد حزام سرج الحصان تحت بطنه، ورأيت أن هذا الشاب كان فتياً، يقارب ابني جايناك من حيث العمر، إلا أنه أطول منه، وله كتفان عريضان، أما خصلات الشعر الأشقر فالتصقت بجبهته، وعلى شفتيه وأجزاء من وجهه خدوش وكدمات حديثة، أما عيناه فقد أظهرتا أنه مازال شاباً يافعاً، أما في تلك اللحظات فقد برقت عيناه بوميض قاتم لآلام قاسية، وهذا كان مفهوماً لي: الآن أصبح شاباً ناضجاً، وبدأ حياته كرجل، وكله في صباح يوم واحد، تتهدّ بصعوبة، وعندما استعد لاعتلاء صهوة حصانه، قال لواحد من شباب القرية:

- اسمع يا صديقي، اذهب على حصانك، وابحث عن المدير، وقادة الجماعات، وأخبرهم بأنه عليهم أن يتوجهوا إلى قيادة المنطقة على جناح السرعة.

أما أنا فسأذهب إلى كولخوزين اثنين حتى اخبر الشباب فيهما. وما إن نطق هذه الكلمات حتى وثب بسرعة إلى سرج حصانه، وانطلق.

ولكن ذلك الشاب الذي تحدث معه، أوقفه قائلاً:

- قف، لقد سقطت قبعتك عن رأسك وطارت بعيداً، خذ قبعتي هذه فاليوم حار.

فنظرنا طويلاً في إثر الشاب الذي انطلق كالصقر بسرعة، وكنا نستمع إلى وقع حوافر الحصان الأشقر فوق الطريق الجديدة الجافة، غطى الغبار الخيّال الشاب. وكنا مازلنا نقف عند حافة الطريق، وكل منا فكر بشيء ما جال في خاطره، وعندما اشتغل محرك الحصادة، ثمّ محرك الجرار، استعدَّ الناس للعمل، ونظر كل واحد إلى الآخر وجهاً لوجه.

منذ هذه اللحظة بدأت حياة جديدة - حياة الحرب...

لم نسمع في مناطقنا أزيز الرصاص وصدى الانفجارات في الجبهة، ولكن قلوبنا كانت تسمع أدق الأمور حتى صراخ الناس. فكم عشت في هذه الدنيا، لم أعرف مثل هذا الحر الشديد، وذلك الوهجان الحارق! يبصق الإنسان على حجر، فيغلي اللعاب وكأنه على مقلاة حامية. أما القمح فقد نضج بسرعة، خلال ثلاثة إلى أربعة أيام: ففي كل مكان أصبح القمح أصفر كلياً ويابساً حتى النهاية، وامتدت السهوب إلى الأفق البعيد، وكانت تنتظر دورها لعطاء خيراتها الوفيرة، وكان يصعب عليَّ أن أنظر إلى السنابل المكسرة نتيجة العمل بسرعة، وكم كان يضيع على الطرقات من خيرات، تحزن لها القلوب! لقد كنا نسرع، ونسرع حتى لم نتمكن من ربط الحزم، فأخذنا نقذف القمح بالشواعيب إلى حضن الشاحنات، ويعدها إلى الدرّاسات فوق أرض البيادر، إنما السنابل كانت تتبعثر وتتبعثر مع العمل بسرعة. وليس هذا المهم، بل كان من الأهم، والشيء الصعب جداً، هو النظر إلى الناس. ففي كل يوم كانت النسوة يودعن أزواج البعض منهن إلى الجبهة [1].

---

[1] جرت العادة في الاتحاد السوفييتي السابق، وحتى في روسيا قبل الثورة الاشتراكية أن يقوم الأهل وأقاربهم وأصدقاؤهم بتوديع الشبان الذاهبون للخدمة العسكرية، أو إلى الحرب في حال نشوبها. وعند عودتهم شهداء أو سالمين يقام لهم استقبال يليق بهم - المترجم.

وهكذا أخذ الرجال يذهبون إلى القتال، ومن يبقى في الكولخوزات من نساء وشيوخ وأطفال عليهم متابعة العمل، عن أنفسهم وعن أولئك، الذين ذهبوا إلى الجبهة. وهكذا كان الناس يعملون في حر الظهيرة، وفي الليالي الجافة الخانقة - في الحصاد، وفي دراسة المحصول على البيادر، وفي المحطات ومستودعات الحبوب، حتى لم يعد الناس يخلدون إلى النوم إلا قليلاً، ولم يعودوا يعرفون الاستراحة، وحجم العمل كان يزداد ويزداد، لأن الرجال، الذين لم يذهبوا إلى الجبهة كان يقل عددهم مع كل يوم، أما قاسم، ابني المسكين، لقد فكر أن يستقل مع أسرته في عشهم الأسري، وكسائق للحصادة لم يعرف الراحة أياماً وليالي كثيرة، وهو كإنسان مهني ضروري لم يتم سحبه إلى الجبهة، فنظم جبهة خاصة به، وأخذ يضاعف جهده على الحصادة في الحقول طولاً وعرضاً، في الليالي والنهارات دون توقف - كان يحصد السهوب قطعة فقطعة، وعاصفة من الغبار الحامي تنتقل فوق حصادته من زاوية إلى زاوية. ففي كل هذه الأيام لم ينزل قاسم عن الحصادة، ولم يبتعد عن دفة قيادتها، لقد أمضى الأيام العديدة في مهب الرياح الساخنة، ينظر كالحدأة يمنة ويسرة، وإلى أعماق السهوب التي مازالت تنتظر دورها للحصاد، كان يعز عليَّ ويؤسفني وضع ابني، وأحزن عند النظر إليه. لقد اسمرّ وجهه كلياً، وطال شعر ذقنه حتى غطى وجنتيه، وعندما كنت أراه على هذه الحال، كان قلبي يعتصر ألماً، "وعندما يبتعد قليلاً عن الحصادة، نجده نائماً تحت الشمس"، - كنت أرغب أن أنصحه بالاعتناء بنفسه، ولكنني لم أجرؤ، كنت أعرف قوة الإرادة في نفسه من خلال لمعان عينيه، وأعرفه جيداً، إنه لم يستسلم للمتاعب والصعوبات وسيتابع حتى آخر ساعة في جمع المحصول.

وهذه الساعة قد حلّت، ففي يوم من الأيام ركضت عليمان إلى الحصادة، وعادت من هناك مطأطئة الرأس.

- لقد أرسلوا له دعوة، - قالت هي بهدوء.

- متى؟

- الآن، مع مجلس الريف.

لقد عرفت أن الدور سيصل إلى قاسم عاجلاً أم آجلاً للالتحاق بالجيش كغيره من الشبان. ورغم كل ذلك، عندما سمعت هذا النبأ، خانتني ركبتاي، وكأنهما انكسرتا تحت جسمي، ومثل هذا الألم أصاب يداي، حتى وقع المنجل من يدي، وسقطت على الأرض متسائلة:

- ماذا يفعل هناك، يجب أن يجهّز نفسه، - لفظت هذه الكلمات بصعوبة محاولة السيطرة بشفتين مرتجفتين.

- عند المساء سأعود للتحدث. الآن عليَّ أن أسافر لفترة قصيرة، وسأعود يا أمي قريباً، أخبري أبي بهذا. وجاينا لم يظهر اليوم. أين يختفي عنا؟...

- اذهبي يا عليمان، اذهبي، حضري العجين. سوف أعود قريباً، - قلت لها بود.

أما هي فقد بقيت جالسة في مكانها كما كانت فوق الأرض المحصودة، جلست طويلاً دون حراك. ولم تكن لديها القوة أن ترفع منديلها عن الأرض، بعد أن وقع عن رأسها. حينها رأيت النمل الكثير، وقد انتظم في سلسلة لا تنقطع. تسير النملات مسرعة عبر خط لا تحيد عنه. فكلها كانت يعمل، يسحبون القش ويحملون الحبوب إلى مستودعات أعشاشهم، دون أن تفكر بالإنسان الذي يجلس إلى جانبها مع مصيبته، وعلى كل حال، فالإنسان الذي يعمل ليس أقل من النمل، أصبح في هذه اللحظة يحسد النمل في حياته، هذه

الكائنات الصغيرة المجتهدة، فبإمكان النمل أن يعمل بهدوء وينفذ مهامه دون أية عوائق. فلولا الحرب التي حلّت الآن، لكان من الممكن أن أحسد النمل على حياته! من المعيب أن يتكلم الإنسان...

في هذا الوقت قدم جاينا ك على عربته، فقد عمل هذه الأيام في حملة الكومسومول لنقل القمح إلى المحطة. يبدو أنه علم بخبر طلب أخيه للالتحاق بصفوف الجيش، وجاء ليأخذني معه إلى البيت، نزل جاينا ك عن العربة رفع المنديل عن الأرض، ووضعه على رأسي.

- لننطلق يا ماما إلى البيت - قال هو، وساعدني على الوقوف.

وسافرنا سوية صامتين، وخلال الأيام الأخيرة أصبح جاينا ك أكثر جدية ورجولة. حتى كان يذكرني بذاك الشاب الروسي على حصانه. إن طبيعة روح هذا الشاب قد سكنت في عينيه البريئتين، ففي هذه الأيام كان قد ودع مرحلة الشباب المبكر، كما ودعها الكثير من الشبان في ربيع شبابهم الغض... فكرت بجاينا ك، وتذكرت، أنه منذ زمن بعيد لم تأتِ رسائل من ماصلبيك. "ماذا جرى له هناك؟ هل أخذوه إلى الجبهة أيضاً، أو ماذا؟ لماذا لم يكتب؟ أليس بإمكانه أن يبعث لنا خبراً قصيراً؟ يبدو أنه قد نسي البيت، وأخذ ينسى أمه وأباه، وقد قسا قلبه في المدينة، وأية دراسة الآن في فصل الصيف، فمن الأفضل لو جاء إلى البيت، فما يمكن عمله الآن معه، دعه وشأنه"، - فكرت بحزنٍ، وأنا أجلس فوق العربة، وبعد صمت، سألت جاينا ك:

- قل لي يا جاينا ك، أنت تذهب يومياً إلى المحطة، فلم تسمع هناك أية أخبار عن هذه المعارك، وهل ستنتهي الحرب قريباً؟

- كلا، يا أمي، ليس قريباً - أجابني جاينا ك برزانة - سيئة الأمور على الجبهة الآن.. الألمان يتقدمون، ويتقدمون بلا توقف. لو

تمكنا، أن نوقفهم في معركة ما، أو نعطب لهم طرقاً بحدة، ساعتئذ من الممكن أن نباشر بردهم على أعقابهم، أفكر بأن هذا سيحصل قريباً - صمت، وساق الخيل بشدة، ثم نظر نحوي وقال: هل أنت خائفة يا أمي؟ خائفة كثيراً؟ فعليك أن لا تفكري يا أمي، ولا تقلقي، فكل شيء سيكون جيداً، سترين بأم عينك أن ما أقوله صحيح!.

إيه، لقد أراد ابني أن يطمئنني بهذه السذاجة حتى أستقر وأهدأ، وندم على هذا. لقد رغب في عدم تضخيم الأمور حتى لا أقلق. فهل يا ترى كان من الممكن أن لا أفكر بشكل سليم؟ ولو أطبقت عيناي، وصممت أذناي، لما تمكنت أن أمنع نفسي عن التفكير بهذه الحرب البشعة.

وصلنا إلى البيت، وهناك وجدنا عليمان جالسة تبكي: لم تحضّر العجين. غضبت وتكلمت معها بقسوة حتى تخجل: "ماذا حلّ بك! هل أنت أفضل من الآخرين يا ترى! فكل الرجال يذهبون إلى الجبهة وليس زوجك وحده، خفضت صوتي وفردت يداي، لا يجوز هكذا، وكيف لنا أن نعيش لاحقاً؟" وفكرت في قرارة نفسي، أنه لا يجوز أن أضغط عليها، لقد أخذت صغر سنها بعين الاعتبار، وربما كان من السيئ جداً أن أضغط على روحها من الأيام الأولى، وحتى تتلاءم تدريجياً مع غياب زوجها، فلم أعد أقول لها شيئاً، وأذكر جيداً أنني لم أقل لها شيئاً.

عاد قاسم عند المساء بعد غروب الشمس بقليل، وعندما ظهر من بوابة الدار، هبّت عليمان تضع الحطب في الموقد، وركضت إليه والدموع تتساقط على وجنتيها، وضمته بذراعيها على رقبته، وهي تقول:

- لا، لا أريد البقاء بدونك، لن أبقى، سوف أموت بدونك!

لقد قدم قاسم من العمل على الحصادة، وكان الغبار يغطي وجهه، وثيابه ويداه ملطختان بالشحم والزيوت، رفع يدي زوجته عن كتفيه وقال:

- انتظري يا عليمان، فأنا متسخ بالغبار والزيوت. من الأفضل، أن تعطيني صابونة ومنشفة، وسأذهب للاستحمام في النهر.

التفتت عليمان، ونظرت نحوي، فهمتُ ما أرادت، فأعطيتها السطل الفارغ:

- أعيديه مملوءاً بالماء.

عاد قاسم وزوجته من جهة النهر متأخرين، وكان القمر قد ارتفع في ثلاثة أرباعه، وقمت بالعمل في المنزل بنفسي، وساعدني جايناك. وعند منتصف الليل عاد سوفانكول. كنت أنتظره، وأفكر حائرة، ما الذي أخره حتى هذا الوقت. وتبين أنه في منتصف النهار قد صعد إلى الجبال، وجلب الحصان الرهوان السنجابي من القطيع. لقد قمنا بشرائه مهراً صغيراً لقاسم عندما بدأ بالعمل على الجرار يا له من رهوان لطيف وأليف، سريع بالمشي، له حوافر قوية ودائرية، رجلاه الخلفيتان كانتا في جوربين أبيضين! لقد كان معروفاً لكل سكان القرية، حتى البنات غنين له:

... عندما أسمع صوت الرهوان في الطريق
أهبّ مسرعة لأكحل عيناي برؤياه ...

لقد قرر الأب، كما يبدو، أن يجلب الرهوان حتى يركب قاسم عليه قبل التحاقه بالجبهة، ولو ليوم أو يومين قبل الوداع.

في الصباح الباكر من اليوم التالي سافرنا جميعاً إلى المركز العسكري في المنطقة، أنا وعليمان على العربة مع جايناك. وقاسم مع

أبيه على حصانيهما، وكان التطويع في الجيش على أشده، والالتحاق بكميات كبيرة، والمودعون والأقارب كانوا لا يحصون، وعندما نظرت إلى السكة الحديدية كانت مليئة بالبشر، والقطار يمتد أسوداً بدايته عند المضيق الأكبر ونهايته غير مرئية. لقد جاء الشعب من كل الجهات على خيولهم، وثيرانهم. وفي ساحة القيادة المنطقية كان من الصعب أن يجد الإنسان موطئ قدم لكثرة البشر، وازدحام العربات، امتلأت الساحات بالأطفال والشيوخ والنساء، وكل مجموعة تلتف حول جنديها المغادر، ولا تغادر المكان ولو لخطوة واحدة، وهناك مَنْ يبكي، وهناك مَنْ شرب كحولاً حتى ينسى همومه. وليس من العبث أن يقال: الشعب - بحر، ففيه العمق، وفيه الأماكن الضحلة. وهكذا هنا في هذه الجماهير المجتمعة، هنا لتوديع المحاربين إلى الجبهة، كان بعض الرجال الذين لا يرمش لهم جفن خوف، بل كانوا صامدين قساة، أبطالاً حقيقيين، يتحدثون برزانة إقناع، حتى كانوا يفرحون الناس، يغنون الأغاني مع عزف الأكورديون قرغيز وروس، وتتالت الأغاني الروسية، ثم القرغيزية، وبالعكس، أما أغنية "كاتيوشا" فقد غناها الجميع. وأنا لم أسمع بهذه الأغنية سابقاً، بل حفظتها هنا في هذه المناسبة.

لم تتسع ساحة مركز التطوع الحربي لجميع الأفراد الذين تم طلبهم للحضور للتوجه إلى الجبهة، وتم تنظيمهم في صفوف في وسط الشارع الرئيسي في المنطقة، وأصبحوا ينادون باسم الشخص وكنيته، صمت الشعب كلياً، وحصر كل أنفاسه، أنظر إلى أولئك الذين كانوا يتجهون إلى الجبهة، ففصّت حنجرتي بدفقة مرة وساخنة تعذبني. فلقد كان أكثرهم، وكأنه تم انتقاؤهم شباباً، ورجال أصحاء، كان لهم أن يعيشوا ويعيشوا بسعادة، ويعملون بما فيه خير

للجميع. وفي كل مرة كان ينادي فيها على شخص، كان يجيب: "حاضر" وينظر نحونا نظرة وداع، أما أنا فلقد ارتعد جسمي بصورة عفوية عندما سمعت: "سوفانكولون قاسم"، ومرة أخرى عادت الغصة المرة إلى حنجرتي مع آلام ساخنة ضربت عيناي، "أنا، حاضر"، أجاب قاسم، أما عليمان فقد شدت على يدي، وهمست: "ماما" وماذا كان عليَّ أن أفعل، لقد تفهمت وضعها: صعب، ومؤلم ومخيف أن تفترق مع زوجها، ولكن هل يجوز لأحد أن يقف جانباً بعيداً عن الشعب! وخاصة في الأيام الصعبة، إيه! يا عليمان العزيزة! وهي كانت تفهم أن الوضع الدفاعي يتطلب هذا من كل المواطنين، ولكنني لم أشاهد في حياتي امرأة أحبت زوجها كما تحب عليمان زوجها قاسم.

في نفس النهار عدنا إلى القرية، وكنا نعلم أن قطار المحاربين سيغادر بعد يوم، ولقد عمل قاسم جاهداً حتى نعود إلى البيت: لماذا ستبقون هنا وتتعذبون يوماً كاملاً، فعليكم أن تعودوا، وأنا سأخرج ساعة مرور القطار من كولخوزنا وأقف على حافة الطريق وأودع ابني. لقد تركنا لعليمان حصان سوفانكول، ونحن جميعاً جلسنا في العربة. وبقي جاينا أيضاً في المدينة المنطقية، وكان عليه أن ينقل المتطوعين على عربته إلى المحطة.

في الليل، وعندما دخلنا إلى بيتنا الخالي، قررت أن أتمالك إرادتي، ولكن الدموع تدحرجت بسرعة على وجهي، قام سوفانكول بتحضير الشاي، وسكب لي الشاي الأسود الثقيل، وأجبرني أن أشرب الشاي، ثم قال وهو يجلس إلى جانبي:

- من كنا أنا وأنت يا تولغوناي؟ فمع أفراد المجتمع أصبحنا بشراً، والآن علينا أن نتقاسم معهم كل شيء - الخير والشر عندما

كانت الأمور تسير بشكل جيد كنا جميعاً سعداء. أما الآن فلا يجوز لأحد ما أن يفكر بنفسه، ويتباكى على مصيره ومصير المقربين منه فقط. كلا، فهذا لا يجوز، وهذا ليس صحيحاً، فعليك غداً أن تملكي أعصابك. فكون عليمان تعذب نفسها - هذا شأنها، فهي لم ترَ في الحياة كما شاهدنا أنا وأنت، وأنت - أم لا تنسي هذا، ثم عليك أن تعرفي إذا طالت الحرب، فإنني سألتحق بالجبهة، وكذلك ابننا ماصلبيك أصبح في عمر يسمح بسحبه للخدمة العسكرية. وإذا تطلب الأمر سنذهب كلنا، وهكذا يا تولغوناي، كوني جاهزة لأية صعوبات قادمة وتعودي من الآن.

في اليوم التالي بعد الظهر بدأت عملية الإرسال، وتقدم قاسم وعليمان سائرين في مقدمة النصف الطويل، كانا يقفزان فوق عوارض السكة الحديدية، وسمحوا لقاسم أن يعرج إلى منزله ليودع أقاربه، بينما كانت عينا عليمان قد انتفختا من كثرة البكاء طيلة الطريق، أمّا قاسم فقد تمالك أعصابه وصمد رغم أن المسألة كانت صعبة بالنسبة له. ولا أعرف لماذا قرر قاسم أن يفكر هكذا: إما لأنه كان يخاف على عليمان، وقرر أن يخفف عليها من آلام الفراق، أو تم السماح له بشكل فعلي، وعندما نزل عن الحصان، طلب منا على الفور أن لا نذهب إلى المحطة، وقال قاسم، ربما سيعود إلى البيت، لأن سائقي الجرارات والحصادات مطلوبون لجمع المحصول، وبناء عليه ربما ستؤجل القيادة سحبهم إلى الجبهة حتى نهاية جمع المحصول. وإذا وصل الأمر لأعادوهم من المحطة، وهنا فهمت أن قاسم قد تعاطف معنا، وحزن لوضع عليمان ووضعنا، وحتى المحطة، يتطلب سفر يوم على القطار، وكيف سيعود إلى هنا - فسيصبح الطريق لا يطاق، ولم تكف الدموع مع طول الطريق، وعند ذلك لقد صدقت: يقال: إن

الأمل يعيش في الإنسان حتى الموت، وعندما خرجنا لوداعه إلى بلشاك، أحاط بي الشك من كل جانب.

سرنا جميعنا مع قاسم، وسار معنا كل مَنْ عرف قاسم في المنطقة، من خلال مواسم الحصاد، وتسابق الحصادون والحمّالون والدارسون في البيادر، وكانت الحصادة تقف قريباً من الطريق، لأن مساعدي قاسم قد اقتربوا من الطريق حتى يتمكنوا من توديع قائدهم إلى الجبهة.

يقولون، إن الحداد وهو يسير للحرب، يودع السندان والمطرقة، أما قاسم ابني كان معلماً مهنياً، حداداً ماهراً في مصلحته، وعندما بقيت الحصادة واقفة، تحدّث قاسم مع شخص من القرية، ثم نظر إلى الطريق. وفي هذه اللحظة شاهد رتل البشر الطويل مع العربات، والأحصنة والرايات الحمر، التي بدت واضحة عند المنعطف.

- خذ يا أبي، أمسك! - قدم قاسم مقود الحصان الرهوان السنجابي لسوفانكول، أمّا هو فقد ذهب إلى الحصادة. دار من حولها، وتفحص كل أجزائها، ثم صعد فجأة إلى جسرها وقال بصوت عالٍ: - أسرع يا إشنكول، أسرع كالعادة! - متوجهاً إلى سائق الجرار.

أما المحركات التي كانت تعمل بصوت خافت، فقد عصفت وعملت بكل قدرتها، وهدرت وزمجرت، وأخذت الحصادة تدوي، وتصرك بسلاسلها، وهي تقذف القش الغزير تحت ضربات مقصاتها، وسارت الحصادة تحصد القمح بسرعة. أما قاسم فقد أدار وجهه للهواء الساخن، وأخذ يضحك بصوت عالٍ وهو يرفع كتفيه، وبدا وكأنه قد نسي كل شيء في الدنيا، وكان هو وسائق الجرار يتحدثان سوية، ويستعملون إشاراتهم الخاصة في العمل. وصلا إلى

نهاية قطعة الأرض التي يحصدونها، ثم استدارا بسرعة ليأخذا خطاً آخر - كانت الحصادة تطير في الأرض كطير السهوب. ونسينا كلنا للحظة الحرب وأحداثها. وقف الناس ينظرون بسعادة، ولكن عليمان كانت أكثر إنسانة سعيدة ومفتخرة. فسارت ببطء للقاء الحصادة، وهي تضحك بهدوء. توقفت الحصادة، ومن جديد عاد الصمت الحزين. أما بيكتاس - ابن جارتنا عائشة، كان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وكان قد عمل في ذلك الصيف بجمع القش على الحصادة، فقد هرع مسرعاً إلى قاسم، وأخذ يقبّله ويبكي، عضضت على شفتي، وأردت أن أصرخ بكل صوتي، ولكني تذكرت أمر سوفانكول الذي منعني من البكاء، فلم أجرؤ على هذا. رفع قاسم الشاب بيكتاش، قبّله ودفع به إلى دفة قيادة الحصادة، ونزل بهدوء على سلم حصادته، احتشدنا جميعاً من حوله، وهنا ودّع مساعديه بالعمل، ومع قائد الحصادة الجديدة، وسائق الجرار وكان من الضروري أن يسرع للالتحاق بالقافلة التي أصبحت تقترب منا.

هكذا ودعنا قاسم وعندما حان الوقت له أن يمتطي الحصان، هبّت عليمان، يا لك من مسكينة يا عليمان! ولم تعر أي اهتمام لوجود الكبار ولا الصغار، صرخت بأعلى صوتها وعانقته وهي تحيط رقبته بكلتا يديها، وقفت شاحبة بلا قطرة دم تلون وجنيتها، وفقط عيناها تشعان من الألم، قمنا بفصلها عنه بصعوبة، ولكنها أفلتت منا، ومن جديد قذفت بنفسها إلى زوجها، وهكذا تكرر هذا عدة مرات، وكانت تبعد قاسم عن الحصان كلما وضع رجله في الركاب، كما لو كان طفلاً صغيراً، وتمسكه من يده وتجره بعيداً عن الحصان، وهي ترجوه:

- ابق معي! دقيقة واحدة! فقط دقيقة واحدة!

أما قاسم فكان يقبّلها ويقول مهدئاً:

- لا تبك هكذا، يا عليمان! سترين، أنني سأعود غداً من المحطة.

صدقيني، سترين!

عند ذلك، قال سوفانكول لزوجة ابنه:

- اذهبي يا عليمان، سيري معه وحدك حتى الطريق، ونحن سنودعه هنا. لا نريد أن نؤخره عن رفاقه، أخذ سوفانكول ابنه من يده، وقال له بهدوء ورزانة: انظر في عيني.

نظر أحدهما إلى الآخر في عينيه بحدة. ثم قال الوالد:

- أنت فهمت ما أردت قوله؟

- "نعم يا أبي، فهمت". - أجاب الابن.

- اذهب، رعاك الله! - امتطى سوفانكول حصانه، ولم يعد ينظر إلى الوراء، وأخذ يعدو على حصانه مبتعداً خلف الشعاب.

عندما ودعت قاسم، قال لي:

- إذا جاءت رسالة من ماصلبيك، أرسلوا لي عنوانه.

سار قاسم وعليمان نحو الطريق، وهو يمسك الرهوان السنجابي من مقوده. لم أحد نظري عنهما، وأخذ الرتل يبتعد. ركب قاسم على حصانه، فتمسكت عليمان بركاب السرج، وهنا انحنى قاسم من فوق الحصان وقبلها بحرارة لآخر مرة، وأطلق العنان لحصانه الرهوان السنجابي، فهب كالريح العاصف، أما عليمان فركضت، وركضت خلف غبار الحوافر، مشيت خلف عليمان حتى لحقت بها، وقدتها إلى البيت.

في اليوم الثاني، عاد جايناك عند المساء من المحطة، وهو يقود الحصان الرهوان خلف عربته، وقد خلع السرج عنه.

5

في البعاد، كانت تدور رحى المعارك، والدم يسيل، وفي معركتنا كان العمل، فكان قاسم محقاً عندما قال محذراً: مهما اجتهدنا، فإن القمح سيبقى تحت الثلج الذي سيدفنه على جذوره وعلى البيادر. وبقي محصول البطاطا في عدة مواقع تحت الثلج أيضاً، لم نستطع جمعه، فالرجال غادروا، مجموعات - واحدة بعد الأخرى، إلى الجبهة. يوماً بعد يوم، كانت الكولخوزات تخلو تدريجياً من الرجال. ونحن نعمل من الصباح وحتى المساء في الكولخوز، والأحاديث عن الحرب، والجبهة، والأخبار فقط - كيف تسير الأمور هناك؟ وهل من جديد؟ وأصبح الإنسان المرغوب من قبل الناس هو ساعي البريد، إذ أن الأهل ينتظرون رسائل من أبنائهم بفارغ الصبر.

مضى وقت على وداع قاسم، ومنذ أسبوع استلمنا رسالة من ماصلبيك، فكتب في الرسالة الأولى، أنه قد التحق بالجيش مع زملائه في الدراسة، ومازالوا حتى الوقت الحاضر يقومون بالتدريب هناك في المدينة، ويطلب في رسالته المعذرة، لأنه لم يتمكن من وداعنا، ورؤيتنا، فمن كان بإمكانه أن يفكر أنه سيحدث هكذا! ويطلب أن لا نأسف لهذا الأمر، والمهم في الأمر - أن نعود منتصرين. أما الرسالة الثانية فقد أتت إلينا منه، وقد كتبها في مدينة نوفوسيبيرسك، ويكتب أنه قام هناك بدورة تأهيلية للقادة العسكريين، وأرسل صورة له، وهذه الصورة مازالت موضوعة تحت الزجاج، وقد اعتمت حتى اسودت قليلاً، يا لها من صورة جميلة: في الثياب الحربية، بدا جميلاً وشعره كثيف قد سرحه إلى الخلف؛ أما عيناه فتنظران بشيء من الحزن الدفين، وهكذا كان يخطر على

بالي في الأحلام حتى الوقت الحاضر. لقد رأته عليمان مرة واحدة، عندما جاء ليوم واحد، وحضر عرس أخيه.

- انظري يا ماما، إن ماصلبيك شاب جميل، كما يبدو، وقالت وهي تنظر إلى الصورة: في تلك المرة لم أنظر إليه بتمعن، وفقط من خلال الستارة، وكنت أشعر بالخجل، عروس وتنظر يمنة ويسرة، لقد خجلت كم كان شيئاً رائعاً لو عاد ووجد لنفسه فتاة متعلمة مثله، وجميلة حقاً، لكان الأمر رائعاً! أليس كذلك يا أمي؟

وافقت معها، وابتعدت بتفكيري وأحلامي عن هذا.

حتى منتصف الشتاء كنت في وضع هادئ نسبياً، يسوء أحياناً ويعود إلى ما يحتمله الإنسان في مثل هذه الظروف، كنت أستلم الرسائل من أولادي، وكانت هي فرص السعادة المرتجفة. وذات مرة وصلت رسالة من قاسم، بأنهم سيتجهون قريباً نحو الجبهة، وهنا دبّ الخوف في قلبي، وأخذ القلب يتجمد. زد على ذلك أنهم أخذوا يطلبون سوفانكول إلى قيادة المنطقة العسكرية، لم يمر يوم واحد، إلا وطلبوه إلى اللجنة الخاصة بالتطويع، أو إلى المبرد، أو إلى إعادة الحساب، لقد ضجر فعلاً من السفر إلى هنا وهناك، يوماً إلى القيادة العسكرية، ويوماً إلى لجنة القادة في الكولخوزات أنا لم أفكر يوماً بأنهم سيأخذون سوفانكول إلى الجبهة: الكولخوز دون قائد لمجموعة العمل كالإنسان دون أيد، ولكن جاء يوم وطلبوه، علمت بهذا الأمر، ونحن نقوم بأعمال الدراسة على البيدر، حيث كنا ننقي القمح الذي وقع تحت رطوبة الثلوج، وكيف علمت بهذا - غرست الشاعوب في القش، وانحنيت إلى مقبض الشاعوب البارد، وبقيت واقفة، أغوص في أفكاري، وكأنني أختنق لكثرتها. كيف لنا أن

نستمر في هذا الوضع؟ وكيف لنا الاستمرار في العيش لاحقاً؟ اثنان من أولادي في الجبهة، والآن زوجي سيذهب أيضاً إلى جبهة القتال...

وهنا، قدم سوفانكول مسرعاً على حصانه، ترجل بهدوء واقترب مني، وقال:

لنذهب إلى البيت، علينا أن نجهز أنفسنا.

ركبت على الحصان، أما هو فقد سار إلى محاذاتي، وقال: إن الحديث هكذا سيكون أفضل، ولكن الحديث لم يتواصل بيننا، وكنا نغرق في الصمت أكثر الأحيان، وهذا ليس لأنه لا يوجد موضوعاً للحديث، بل لأن كان الأمر صعباً أن يتكلم كل منا عما في داخله، حتى أصبح الأمر مخيفاً جداً وهكذا سرنا - أنا على الحصان، وهو سائر على قدميه، وفي السماء تلبدت غيوم رمادية داكنة، ومن جهة الهضاب الصفراء عصفت رياح شمالية، والرياح الثلجية أخذت تتحرك منذرة بعاصفة ثلجية قريباً، نظرت من حولي فوجدت الأرض ممتدة تعبة وخالية، بدون بشر، وبدون أي كان من الأصوات، وبلا حركة تذكر، باردة مع ضباب كثيف.

سار سوفانكول، وهو ينفث الدخان من سجائره التي كان يدخنها الواحدة بعد الأخرى، بلا توقف ثم أخذني من مرفقي.

- هل بردت؟ سأل هو بحنان.

لم أقل شيئاً، بينما أراد أن يقول ما في خلده، ولكنه صمت، ربما أراد أن يتقاسم معي ما يجول في خاطره: "ها أنذا، أذهب على أثر أولادي، فكيف سيكون الأمر هناك؟ وهل سيكتب لنا أن نعود إلى البيت أو انتهى الأمر؟... ربما، نفترق الآن إلى الأبد. فإذا كان الأمر كذلك، فكم من السنوات عشنا في مودة ومحبة؟ وإذا كان قد حصل شيء خطأ فليسامح أحدنا الآخر، فليس معروف كيف

سيكون مصيرنا". وهل أراد هو قول هذه الكلمات أو غيرها، فمن يعلم ما في خاطره، وهذه المرة الأولى التي وقف، ينظر إليَّ محدقاً في وجهي، صامتاً، يعض شفتيه، وهنا لاحظت كيف أخذت تظهر بين شعر شاربيه الكثيفين بعض الشعرات البيضاء، فقبل فترة لم ألحظ هذا نهائياً.

تذكرت كيف التقينا أنا وسوفانكول في هذه الأرض، عندما كنا شباباً قبل اثنتين وعشرين سنة، وعملنا سوية، وسكبنا العرق، وربينا الأولاد، وزرعنا القمح، وهكذا تذكرت الحياة كلها وكأنها لحظة واحدة، شخصت الآن أمام عيني، ولم أفكر - لم أبصر في مطلقاً، وكل ما في الأمر أنني تذكرت، كيف ركرينا في الصيف، في أول يوم للحصاد، سوية في الليل على الحصان، في هذا الطريق، وشاهدت الآن أن الشارع الجديد على طرف القرية بقي مهملاً، ولم يتم تعبيده، وشاهدت كيف بقيت قطعة الأرض الخاصة بقاسم وعليمان كما هي، والحجارة مازالت عليها والطوب في مكانه، لحظتها انهارت قواي وانحنيت على عرف الحصان، وأخذت أبكي، بكيت طويلاً، أما سوفانكول كان ينتظر بصبر اللحظة التي أعود فيها لتماسك أعصابي، ثم قال:

- ابك يا تولغوناي، على كل القضايا التي تعاني منها روحك مرة واحدة، فهنا لا يوجد أحد، وعليك أن لا تظهري دموعك أمام الناس فيما بعد عند الوداع. فأنت الآن ستبقين هنا، ليس كربة بيت فقط، وليس كمسؤولة عن عليمان وجاياك، بل ستكونين قائدة في الكولخوز بدلاً عني، فلم يعد أحد يتحمل المسؤولية.

- لقد ذرفت الدموع، بعد سماع هذا، أكثر وأكثر:

- لأي شيطان تلزمني هذه القيادة؟ كيف بإمكانك أن تتكلم عن هذا الآن، في مثل هذه الساعة؟ لا يلزمني أي شيء. ولا أريد أن أسمع شيئاً!

- في المساء طلبوني إلى إدارة الكولخوز، وكان المدير الجديد موجوداً - وهو محارب، أصيب بمطب على الجبهة، يدعى أوسينباي• وكذلك سوفانكول، وعدد من الكهلة، وبعض العاملين، فقال أوسينباي فوراً متوجهاً لي بالكلام بدون مقدمات:

- مهما قلتِ أيّتها الخالة تولغوناي، عليكِ أن تقومي بدور رجولي، وأن تقبلي مهمة قائد العمل في القرية، وتمتطي حصان وتشدي الحزام كقائد للعمل. فلا أحد يعرف أرض، ومياه، وشعب قريتنا كما نعرفه نحن. إننا نثق بك، ونثق بك أكثر، لأن أفضل قائد للعمل في كولخوزنا، والذي نودعه اليوم ونحن نعتصر ألماً إلى الجبهة، يثق بك ثقة كبيرة. ولذلك، ما عليكِ إلا أن توافقي. ومنذ صباح يوم الغد ابدئي العمل يا خالة تولغوناي.

وأخذ وجهاء الكولخوز التشاور فيما بينهم وإدلاء النصائح لي. وفي نهاية الأمر وافقتُ على قبول المهمة بأن أكون قائداً للعمل في الكولخوز. وكيف لي أن لا أوافق، وأنا أعرف جيداً الظروف التي نمر فيها؟ لقد وقفت موقفاً صحيحاً، وخاصة لأن موافقتي تتناسب مع الرغبة الأخيرة لزوجي سوفانكول. وفي تلك الليلة لم ينم زوجي مطلقاً، وكان يرشدني، ويعلمني على مفاتيح العمل، ويعطيني الأوامر والنصائح: عليك يا تولغوناي أن تبدئي بالتحضير لفصل الربيع، وأن تريحي وتعلفي دواب الجر من خيول وثيران جيداً، وعليك أن تصلحي المحاريث والمعدات، والعربات... واعتني بالأسر كثيرة الأطفال، والكهلة... واعملي هذا هكذا، وذلك على هذا الشكل...

إيه، يا له من إنسان لا يعرف الكلل أوالملل، زوجي الحبيب واللطيف، وصديقي الودود قلبياً...

وحتى الصباح استمر سقوط رذاذ خفيف، والهواء يعصف بشدة في مدخنة الموقد.

قمنا بوداع سوفانكول كما يجب إلى محطة القطار. جلس هو في عربة جاياك مع الناس الكبار في السن، وذهبوا تحت العاصفة، واختفوا بعد قليل في عتمة الثلج. يا له من برد قارس، ورياح جليدية تلسع الوجوه بشدة! سرت بهدوء، وتلفت من حولي حائرة، وأنا أبكي بمرارة.

ومنذ ذلك اليوم، كما قال مديرنا أوسينباي. ففي صباح اليوم تمنطقت كما يجب، وامتطيت الحصان، وبدأت عملي كقائد للعمل. والآن هذا العمل ليس سهلاً، وليس كل إنسان يقدر على القيام به. وفي تلك الفترة، وفي مرحلة طويلة - كانت معاناة صعبة: لم يبق لدينا رجال أقوياء وأصحاء؛ إما رجال مرضى، أو مشوهي حرب، عرج مع عكازات، والعمال الباقون كانوا من النساء، والبنات، والأولاد، والكهلة. وكل ما كنا ننتجه، كنا نرسله إلى الجبهة. وفي العمل كانت العربات تحتاج إلى عجلات، وقطع غيار، وتحتاج إلى حدادة صفائح، بينما لم يكن لدينا فحم للحدادين، أصبحنا نشعل الأشجار الشوكية التي نجمعها من الأراضي التي تغمرها الفيضانات والتي حاولوا أن يبقوها مشتعلة بهدوء. أما السكان فقد عانوا من الجوع الذي كان ينتظر في زوايا البيوت. ورغم كل ذلك، عملنا كل ما في وسعنا حتى لا تقف الحياة في الكولخوز، وبقي الإنتاج حسب مقدرتنا القصوى، وعندما أتذكر الآن: فمن أجل العمل كنا نتوجه للناس وهم في حالة إعياء، وعندما يسمعون الكلمة الطيبة، يهبون بكل

عزيمة، وكان البعض الذين يحتاجون للتهديد والوعيد، وفي بعض الأحيان كان يلزمنا أن نشد البعض من شعره، فالناس على اختلاف أنواعهم وأحاسيسهم قاموا بواجبهم الوطني... وأنا الآن أنحني بكل هامتي أمام الشعب احتراماً وإجلالاً، إذ بقي شعباً حراً، رغم الصعاب. فالنساء آنذاك - أصبحن عجائز الآن. والأطفال - أصبحوا آباءً، والأمهات للأسر حافظن على وفائهن، وقد نسين الآن تلك الأيام القاسية، وأنا، وفي كل مرة أرى النسوة اللواتي عرفتهن آنذاك، أتذكر كيف كنّ في تلك المرحلة، وكيف كنّ نصف عراة، شاحبات، لا يجدن ما يأكلن. ولقد عملن آنذاك في الكولخوز بكل اجتهاد، وهنّ ينتظرن النصر، وعودة أزواجهن وأولادهن الشباب. وكيف بكت النساء الثكالى من استشهد من أقاربهن، وكيف صبرن وتصرفن كالرجال! لا أعرف وصفهنّ، ولكن أعلم أنهنّ قُمْنّ بتضحيات لا تنسى. ومهما يكن، وفي أية ظروف سأعيش، ومهما كبرت وانحنى ظهري، فإنني لا أتمنى أن أعمل رئيسة لمجموعة في كولخوز. فمنذ الفجر المبكر كنت أنهض لأقوم بأعمال المنزل ومباشرة إلى ساحة الكولخوز. وبعد توزيع العمل، كنت أمضي طيلة النهار فوق الحصان إلى هناك، وإلى مكان آخر، وثالث ورابع، وإلى السهول، وإلى الجبال، ومنذ غياب الشمس حتى ساعة متأخرة من الليل في إدارة الكولخوز، وهكذا يمضي النهار بكل متاعبه دون الإحساس بطوله. ربما هذا هو الشيء الوحيد الذي أنقذني. ورغم بعض الحالات المزعجة، إذ كان البعض يسبني أحياناً، وأمسكني البعض من حنجرتي، والبعض ترك العمل، فأنا لا أذكر السوء، كلا. وفي مثل هذه الظروف، كنت أحول العمل إلى ابني جاناك وعليمان، فكانا يعملان ليلاً ونهاراً بلا استراحة، ورغم كل ذلك، فأنا غير

آسفة على ما مضى أنني كنت أضغط على الجميع بلا شفقة، زد على ذلك الأفكار الصعبة القاسية التي تلاحقنا، وكان الخوف والهلع يحني ظهورنا - ثلاثة رجال من أسرة واحدة على الجبهة، هل كان بالإمكان أن ننساهم للحظة واحدة؟ فمن قاسم وهذا هو الشهر الثاني يمر، ولم يأتِ من صوبه خبر أو علم. وأنا وعليمان نخفي أعيننا عن بعضنا، حتى لا نبدأ الحديث عنهم، فبدون الذكريات والأحاديث والانتظار، أصبحت قلوبنا تنبض كالطيور المذبوحة. ولو جاء ذكر قاسم كان علينا أن نتحدث طويلاً، عنه شخصياً، كيف كان يعمل؟ وعن أمور المنزل، فكنا كالأطفال، نحاول ونجتهد أن لا نتذكر.

في يوم من أيام الشتاء القارس ذهبت مسرعة إلى ورشة الحدادة أساعد العاملين: لقد كان المهنيون يحذون خيول العمل. فوجدت أمامي هناك مدير كولخوزنا أوسينباي راكباً على حصانه الذي يعدو خبباً، وفي يده ورقة صغيرة، بقدر مساحة الكف توجه نحوي، وقال: "هذه برقية سريعة لكم" توقفت أنفاسي عن الصعود. وأسمع كيف كانت ضربات الحدادين تتعاقب ضربة على الحافر، وضربة على المسمار، وكأنها كانت تضرب بصوت واحد على صدري، وأصبح وجهي شاحباً بدون لون.

- ما لك يا خالة تولغوناي - صرخ مدير الكولخوز.

- فهذه البرقية من ماصلبيك، من نوفوسيبيسرسك. اقتربي، وخذي البرقية. لا تخافي! - انحنى عن سرج حصانه، وناولني الوريقة، وكتب فيها، - عليكم أن تتجهوا حالاً إلى المحطة، فإن ابنكم سيمر من هناك، يريد رؤيتكم، ويطلب أن تكونوا هناك، وأنا أمرت أن يجهزوا لكم عربة، وأن يضعوا للخيل الخصاب والقنبز، فلا تتأخروا واذهبوا الآن في الحال.

فلم أستوعب، هذه الفرحة قد أدهشتني! لم أعرف ما عليَّ أن أفعل، فأخذت أركض في ساحة الحدادة. فقام الحدادون، وطردوني حتى أخرج، وهم يقولون: نحن سنذهب أيضاً، اذهبي يا قائدتنا، سافري بسرعة إلى المحطة، حتى لا تتأخري.

هرعت إلى البيت بسرعة، ولا أفهم شيئاً ما عليّ أن أفعل، وماذا لأي أمر. أعرف شيئاً واحداً: ماصلبيك يطلب أن نستقبله في المحطة، حتى نراه. أركض في الشارع، أصبح جسمي دافئاً رغم الجليد، والعرق يتصبب. أركض وأتحدث مع نفسي كالمجنون:

- ماذا يعني، أن يطلب الإنسان؟ نعم، يا ابني، سأركض عشرات الكيلومترات على الأقدام، سأركض حتى أراك، وسأطير طيراناً، وكأن لي جوانح!

إيه، أيّتها الأم، الأم... لم أفكر في تلك الساعة، إلى أين سيصل ابني، وإلى أية جهة؟

ركضت إلى البيت، وبسرعة حضّرت بعض المأكولات: سلقت كل ما عندي من اللحم، لأن ماصلبيك لن يكون وحده، بل مع رفاقه، فليأكلوا سوية أكلاً بيتياً، فقد اشتاقوا لهذا. وضعت كل هذا في خُرْج، وسافرت مع عليمان إلى المحطة. ولقد أردت أن أذهب مع جاناك. ولكنه رفض.

- كلا، - قال جاناك، - يا ماما من الأفضل أن تذهب معك عليمان، وأنا سأكون في المنزل، سأقوم بالعمل هنا، هكذا سيكون أحسن.

فيما بعد أدركت أن جاناك قد فعل خيراً، وبغض النظر أنه كان صبياً شاباً، إلا أنه كان غير غبي. إنه كان يدرك ماذا يدور في عالم عليمان، وكم كانت تعاني في داخلها. فهي في هذه الأيام

كانت قلقة جداً، وتعاني بشدة. فركض جاينا إلى ساحة الخصاب، حيث كانت تعمل عليمان، ونادى زوجة أخيه. ومنذ زمن بعيد لم أر كنتي، وعلى وجهها ابتسامة، فأشع وجهها كله، وفرحت، واهتمت بالتحضير للقاء ماصلبيك أكثر مني، وأخذت تستعجلني حتى لا نتأخر:

- أسرعي يا ماما! جهزي نفسك بسرعة، هذه هي فروتك، وهذا هو منديلك الصوفي الناعم، ارتدي بسرعة ولننطلق!

وخلال الطريق لم أعرف لنفسي مكاناً.

- أسرع، أسرع، اضغط على الأحصنة! - طلبت بإلحاح من الحوذي- أن يجبر الأحصنة على العدو بسرعة. وفي بعض الأحيان كانت تمسك بالمقود عنه، وتلوح بالسوط وتضرب الخيول.

أمّا العربة فكانت تهتز بشدة مع السرعة، ولأن الطريق وعر نسبياً والأحصنة كانت تسير بحيوية، ورتابة، وكانت العجلات المشحمة تدور بهدوء. طيلة الطريق كان يتساقط الثلج بهدوء، وبلا رياح، ومفرح للقلب، إلا أن البرد القارس أخذ يتزايد، كانت عليمان قد تغطت بالثلوج، ولكن لم تعلم أن هذا الثلج قد أعطاها جمالاً أكثر، وخاصة أن كمية منه قد تجمعت فوق رأسها، وعلى نصف الشال، وعلى خصلات الشعر البارزة إلى الأمام، وكذلك على قبة المعطف، وأعطاها لون وجهها القمحي ووجنتاها الورديتان، وعيناها الفرحة المشعة رغم سوادهما وأسنانها البيضاء، وكل ما فيها بدا جميلاً ساعتئذ، ففي عمر الشباب كل شيء يبدو عليه جميلاً - حتى الثلج. لم تصمت عليمان طيلة الطريق. فأحياناً كانت تطلب مني أن أسكت عندما يخرج ماصلبيك من القطار. وأن لا تعرفه عليها، حتى تختبر ذكاءه هل سيعرفها أم لا؟ واقترحت عليّ أن تأتي من خلف

ماصلبيك وتضع يداها على عينيه، وهل سيعرفها: ماذا سيقول، ربما سيخاف، أو يقول، من هنا مازال يمارس مثل هذه الطرف الغبية؟ وكانت تتحدث وتضحك من تصرفاتها. إيه يا عليمان، عليمان، يا كنتي الحبيبة الغالية! وهل كانت هي تعتقد أنني لا أعرف، لماذا تتصرف هي على هذا الشكل. فهي قد غلطت في الكلام. والتزمت الصمت فجأة، وكفت عن الضحك، وسألتني بهدوء:

- ماصلبيك يشبه قاسم جداً. إنهما كتوأمين، أليس كذلك؟

تصنعت أنني لم أسمع. فالتزمت الصمت. وأخذت تفكر عن شيء في داخلها، ثم أخذت مقود الأحصنة عن الحوذي، وصرخت بالأحصنة بحيوية غريبة، فانطلقت مسرعة.

في المساء وصلنا إلى المحطة. أوقفنا العربة، ثم انطلقت أركض مع عليمان في الطريق، حيث حان الوقت لوصول ماصلبيك. إلا أنه لم يكن أحد هناك. تلفتنا من حولنا، وبحثنا في الزوايا، ثم وقفنا في نقطة بارزة كيتيمتين. فإلى أين سنذهب، وماذا علينا أن نفعل؟

- لا نعرف شيئاً. وبين أخشاب الطريق العرضية انبعثت رياح ثلجية. تراجع القطار إلى الخلف، ثم تقدم قليلاً، مع شيء من الصرير والقرقعة، وانطلق قليلاً إلى الأمام مركزاً على وضع الفرغونات في أماكنها بينما أخذت الرياح تصفر قليلاً في البواري وبين العجلات.

لم يحدث لنا سابقاً أن استقبلنا أحداً ما في القطار، وحتى لم يخطر على بالنا أن نسأل أحداً أياً كان، ماذا، ومتى سيصل القطار؟ في هذا الوقت سمعنا من بعيد صفير القطار، ثم ظهرت بدايته.

- "هذا هو قد قدم يا أمي"، - قالت عليمان.

لقد اختل توازني عند ركبتي، إذ شعرت برجفة قطعت أوصالي. اقترب القطار بسرعة، وهذا هو محرك القطار يشق زوبعة

الثلوج أمامه، توقف القطار. انطلقنا نركض إلى حافة الفرغونات المملوءة بالبشر. نساء، وأطفال وكثير من الجنود، فمن يعرف، من هؤلاء، وأين كانوا؟ وإلى أين يسافرون؟ لقد أخذنا نسأل في كل فرغونة على حدة:

- هل سوفانكول ماصلبيك معكم؟ قولوا لنا من فضلكم، هل سوفانكول ماصلبيك هنا؟

البعض كان يجيب، بأنهم لا يعرفون، والآخرون التزموا الصمت، وآخرون ضحكوا. وخلال المدة التي بحثنا فيها في كل الفرغونات، تحرك القطار وابتعد، ولم يتوقف إلا ثلاث دقائق. وتبين أن الموقف الرئيسي له سيكون في المحطة القريبة منا. بقينا واقفين، وكأننا أطلقنا من أيدينا طيراً. هنا اقترب منا عامل سكك حديدية روسي مسن في فروة سوداء قصيرة، وينتعل جزمة من لباد سميك. لاحظته عند استقبال القطار. فسألنا من ننتظر؟ فتحدثنا له، وأعطيناه البرقية التي أرسلها ماصلبيك. وضع نظارته على عينيه، وأخذ يقرأ، ثم قال:

- ابنك يا خالة مسافر بالقطار الحربي. في أي قطار، وفي أية ساعة سيمر من هذه المحطة؟ وهل سيتوقف هنا أو في غيرها؟ الأمر غير معروف. وإذا لم يتأخر، يجب أن يصل اليوم في الليل، أو غداً سيصل. ومن الممكن أن هذا القطار قد مر. ففي هذه الأيام تمر عشرات القطارات الحربية كل يوم إلى ذاك الاتجاه، أو بالعكس، وكثيراً منهم لا يتوقف هنا.

أحنينا رأسينا حزناً، ناظرتين إلى الأرض أحياناً، وإلى بعض أحياناً أخرى.

- إيه، يا للحرب! يا للحرب!، - قال عامل السكك الحديدية وهو يتنهد. - لقد قلبت الأمور رأساً على عقب! فلماذا ستقفان هنا في هذه الرياح الباردة؟ اذهبا إلى المحطة، هناك توجد غرفة للانتظار. اجلسا هناك، وعندما ستمر القطارات، اخرجا، وابحثا عن قريبكم... لا يوجد مخرج آخر.

في غرفة المحطة، كان يوجد عشرة أشخاص تقريباً، كانوا يضطجعون على المقاعد الخشبية. يبدو أن الحياة أخذتهم في زوبعتها في كل الاتجاهات للطرق الحديدية، فتعودوا أن يناموا في المحطات، ويشعرون بأنفسهم وكأنهم في بيتهم، وبعضهم كان يغط في نوم عميق، والبعض الآخر أخذوا يناقشون مواضيع مختلفة فيما بينهم. وأغلبهم يدخن، وفي الزاوية كان اثنان يشربان ماء مغلياً في باطيتين صنعتا من الحديد المطلي بالقيشاني، فسلقا ألسنتهما، فأخذا ينفخان على الماء، وثمة واحد، أخذ يدندن على قيثارة، ويغني بهدوء أغنية غير واضحة، أما المصباح الكهربائي ذو الخطوط العشرة. فقد كسر من جانبه وأخذ يعطي ومضات تماس كهربائي، وتذوب الأسلاك، كان الضوء ضعيفاً في هذه الغرفة، بحثنا عن مكان، فلم نجد إلا فسحة صغيرة على طرف المقعد بالكاد جلست مع عليمان. لم نطل الجلوس حتى سمعنا دوي قطار قادم، فنهضنا بسرعة، واتجهنا إلى الباب. أما الريح في الظلمة تجاوزت كل شيء، ودخلت حتى إلى الأكمام. كان القطار مخصصاً لشحن البضائع والمؤن. أما الجنود فلم يكونوا فيه، وعلى الرغم من ذلك سرنا بحذاء القطار، ونسأل في كل فرغون:

- هل سوفانكول ماصليبك معكم؟

- هل سوفانكول ماصليبك في هذه القاطرة؟

لم يجبنا أحد، ولم نجد أحداً، وعندما عدنا إلى المحطة، كان الجميع هناك نياماً.

- اجلسي يا أمي، واخلدي للنوم قليلاً، أما أنا فسوف أقف، وأراقب قدوم القطار حتى لا يفوتنا، - قالت عليمان، وجلست إلى جانبي.

أحنيت رأسي على كتف كنتي، وقلت ربما أنام دقيقة، ولكن من أين يأتي النوم؟ وكيف من الممكن أن أفكر بالنوم، إذا كنت متيقظة ليس فقط بحاسة السمع، بل بكل الحواس الأخرى بالإضافة للعقل والقلب، التي تحس بقدوم القطارات واحداً بعد الآخر، فعلى مسافة ثلاثة أتساع الأرض كنت أحس كيف تقترب القطارات من خلال اهتزاز الأرض تحت ثقلها، ومباشرة تستنفر الأعصاب، ونهب واقفتين لاستقبال القطارات، بغض النظر عن الجهة القادمة منها، وإلى أين تغادر، كنا نقف ونأخذ الخُرْج بسرعة راكضين إلى طريق القطارات.

كانت القطارات تمر، ولكن لم يكن ماصلبيك في واحد منها. وفي منتصف الليل، اهتزت الأرض تحت أرجلنا، نهضنا وخرجنا لنفتش القطار القادم. ومن جانبي المضيق وصل إلى أسماعنا الصفير القوي للقطار البخاري. ووصلت القطارات من جهتين بنفس الوقت. فاحترنا في أمرنا، كيف لنا أن نفتش في الاثنين معاً، ولذلك مشينا بين القطارين. ارتفعت صفارات القطارات التي تصم الآذان، وتجتاز المحطة دون توقف، وهي تسرع أكثر وأكثر، ونحن نبحث، ثم خرجنا من فوق الممر والمجلات تسير برتابة، بينما كانت الرياح تزداد، وزوبعة الثلج كانت تلف وتدور ثم تمر من تحت القطار.

- ماما! - صرخت عليمان، وأمسكت بي، وضمتني إلى عمود الكهرباء بشدة بذراعيها ولم تتركني، كي لا أسقط أرضاً.

تابعت النظر في القطارات المسرعة، مدققة في نوافذها التي تلمع كالبرق: ربما فجأة أرى وجه ابني ماصلبيك هناك خلف الزجاج. أمّا السكك الحديدية فقد كانت تئن تحت وقع العجلات المسرعة في ضرباتها كما يدق قلبي المضطرب هلعاً وخوفاً على ابني، اجتازتنا القطارات من جانبنا وهي تجر خلفها سحائب ثلجية. بينما تابعنا الوقوف طويلاً. ونحن نلتصق إلى عمود المصباح الكهربائي.

بدت علائم الفجر تظهر تدريجياً، ونحن واقفتين، وعملنا الوحيد، كنا نركض من بداية القطار حتى آخره، ومن آخر الآخر إلى أوله، حتى لا يمر قطار بلا مراقبة منّا. وعند الفجر، كانت عاصفة الثلج قد هدأت. قدم إلى المحطة من جهة الغرب قطار لم نره سابقاً: كل الفرغونات كانت محروقة والأسقف كانت مهشمة ومخلوعة من مكانها، والأبواب مكسرة. ولم يكن في كل القطار إنسان واحد عدا القيادة، وعمّ الصمت القاتل كل الفرغونات الفارغة كما لو كنا في المقبرة، ومن حديد القطار المحروق كانت تفوح رائحة الدخان الرطب من الخشب وغيره من الأشياء التي كانت على القطار.

اقترب عامل السكك الحديدية الذي تكلم معنا البارحة، الذي يرتدي فروة قصيرة، من القطار، وهو يحمل مصباحه.

- سألته عليمان بصوت خافت:

- لماذا هذا القطار على هذا الوضع؟

- لقد وقع تحت قصف الأعداء - أجاب الرجل هامساً.

- وإلى أين يأخذون هذه الفرغونات المحروقة الآن؟

- إلى مصنع الإصلاح - أجاب الرجل بنفس الصوت الخفيف.

سمعت الحديث، وفكرت بأولئك، الذين كانوا في هذه الفرغونات، فارقوا الحياة، وهم يتخبطون بالدخان والصراخ والنيران، وفكرت بأولئك، الذين فقدوا أطرافهم من الأيدي والأرجل، والذين فقدوا البصر والسمع إلى الأبد... وهذه القنابل الحارقة، هي شيء قليل من نيران الحرب. وكيف إذن هي المعارك في جبهات الحرب الحامية؟

بقي هذا القطار المحروق المهشم مدة طويلة في المحطة، ثم تحرك بهدوء، وهو يصيح بألم وحزن الجريح، وانسحب بعيداً. نظرت في إثره، مع حزن أسود ودفين في نفسي: هكذا، إن ماصلبيك سوف يذهب إلى هناك، من أين أتى القطار المهشم. وكيف الأمور عند قاسم؟ وكيف سوفانكول؟ لقد كتب، أنه موجود بالقرب من ريزان. ربما هذه المنطقة، غير بعيدة عن الجبهة.

حلّ الصباح، وكان من اللازم علينا أن نعود إلى الكولخوز، فالخصاب عند الأحصنة قد انتهى. وربما ماصلبيك لم يحضر بعد، وكم انتظرناه طويلاً. ألا يكون الأمر مزعجاً لو حضر بعد مغادرتنا الآن؟ فكرنا بأشكال مختلفة، أنا وعليمان، ولكن لم نجرؤ على المغادرة.

كان الطقس كما كان البارحة، فالرياح تعصف، والبرد كما هو. وليس من العبث أن يسموا مضيق المحطة بـ "خان قافلة الرياح" وفجأة انقشعت الغيوم. وسطعت الشمس. "إيه، - فكرت أنا، - حبذا لو يظهر ابني الآن. كما ظهرت الشمس من خلف الغيوم، حبذا لو بدا للعين، ولو لمرة واحدة...".

وهنا سمعنا أصوات ضجيج القطار القادم من الشرق، ودوي صفيره المزدوج من خلال المضيق، وصل إلينا هائلاً.

اهتزت الأرض تحت أقدامنا، وضجت السكك، مع شيء من القرقعة في الدخان، والبخار مع العجلات الحمر، والمصابيح الحامية، حيث وصل قطاران سوداوان، ومن خلفهم على الطريق ظهرت الدبابات والمدافع مغطاة بقماش سميك ضد الماء، وإلى جانب كل منها حراس في فراوات دافئة، وبواريد في أيديهم، وظهر الجنود من خلال الأبواب المفتوحة في الفرغونات الدافئة، وعقبوا بعضهم الفرغونة خلف الأخرى، والأوجه تظهر للحظة، ثم تختفي. والمعاطف، وثياب، وأغان، وكلمات نغمات أكرديون والبلاليكا. حدقنا في الفرغونات والأوجه. في هذا الوقت شاهدنا رجلاً يركض نحونا، وهو يحمل رايات حمراء وصفراء في يديه، وصرخ بأعلى صوته:

- لا تقف! لا تقف! أسرع! ابتعد عن الطريق! - وأخذ يدفعنا بعيداً.

في هذه الدقيقة ارتفع صوت صراخ بالقرب منا:

- ماما - آ - آ! عليمان - آ - آن!

هذا هو! ماصلبيك! إيه يا لك! يا إلهي، كان يمر بالقرب منّا مسرعاً جداً. انطلق بكل جسمه بارزاً، من جسم الفرغونة، وهو يتمسك بيد باب الفرغونة، وباليد الأخرى أخذ يلوح لنا بقبعته مودعاً، وهو يصرخ بكلمات وداع. إنني أذكر كيف صرخت: "ماصلبيك!" وفي هذه اللحظة القصيرة شاهدته كله، وبصورة واضحة: كانت الرياح تداعب خصلات شعره، وأطراف المعطف كانت تخفق كأجنحة، وعلى وجهه وفي عينيه - فرح ومصائب، وأسف ووداع! لم أزح نظري عنه، حاولت أن أركض كي ألحق به، دون جدوى. مر آخر فرغون في القطار، وأنا مازلت أركض عبر عوارض السكة، ثم وقعت. آه كيف كنت أتوه وأصرخ! ابني سافر إلى أرض المعارك، وقد

ودعته، وأنا أضم سكة الحديد الباردة. ابتعد القطار، أكثر فأكثر، وأصبحت أصوات عجلاته على السكة غير مسموعة نهائياً.

والآن، وفي بعض الأحيان، يبدو لي أن أصوات عجلات القطار، وصرير الفرغونات تمر عبر رأسي أحياناً، وقلبي أحياناً أخرى، وتدوي في أذني صوت المجلات بلا توقف.

عادت عليمان، والدموع تبلل وجهها، سقطت إلى جانبي، تريد أن ترفعني فلم تقدر، الحشرجة تملأ صوتها، وتسد حنجرتها، يداها ترتجفان. وهنا تقدمت امرأة روسية، عاملة في محطة القطار. وها هي عليمان تعود وتصرخ: "ماما! ماما! "تحيط كتفيّ بذراعيها، وتبكي، وحاولتا معاً رفعي، ثم قادتاني إلى حافة الطريق. وعندما سرنا إلى المحطة، أعطتني عليمان قبعة فرو عسكرية.

- خذي يا أمي. - قالت هي، - ماصلبيك أبقى لك هذه. اتضح أنه قذف القبعة التي كان يلوح بها في يده لي عندما ركضت خلف الفرغونة.

اتجهنا إلى البيت، مع هذه القبعة في أيدينا، جلست في العربة وضممتها إلى صدري.

وهذه القبعة العسكرية مازالت معلقة على جدار بيتنا. قبعة فرو عسكرية، رمادية اللون، لها واقيتان للأذنين، ونجمة في مقدمتها. أحياناً أمسكها بيدي وأضعها على وجهي، فأشمّ رائحة ابني.

6

- قولي لي أيّتها الأرض الأم الحبيبة، متى، وفي أية أزمنة، تعذبت وعانت أم، حتى تحظى برؤية ابنها مروراً عابراً سريعاً؟

- لا أعرف يا تولغوناي. فمثل هذه الحرب في حياتك المعاصرة، لم يعرف العالم.

- عسى أن أكون آخر أم، انتظرت ابنها بهذا الشكل. وعسى أن لا تسمح يا إلهي بأمر كهذا، أن تعانق امرأة - أم، السكة الحديدية، وأن تضرب رأسها على عوارضها، بدلاً من أن تضم ابنها، وتضع رأسه على صدرها.

- نعم يا تولغوناي، عندما عدتِ إلى البيت، كنت أراك من بعيد، وحزرت، أنك لم تلتقي مع ابنك. لقد كنت شاحبة، وعيناك ذابلتان معذبتان، كما لو كنتِ قد مرضتِ فترة طويلة.

- آه، أيّتها الأرض الأم، أفضل لي لو كنت فعلاً قد مرضت شهراً كاملاً في حمّى معذبة.

- يا لك من مسكينة، يا عزيزتي تولغوناي، في السنة الماضية كان الشيب قليلاً في شعرك، أما الآن فلقد خطّ الشيب كل رأسك. وأية ظفائر كانت لديك ثقيلة وكثيفة...! ولقد أصبحتِ حزينة، صامتة، ومتجهمة. تأتين إلى هنا صامتة، وتعودين كذلك، مطبقة الأسنان. وأنا أتفهمك جيداً، لقد رأيت عينيك، ومع مرور الزمن أصبحت الحياة أصعب وأصعب بالنسبة لك.

- نعم أيتها الأرض - الأم، رغماً عنكِ تصبحين هكذا. ولو كنت أنا وحدي مَنْ عانيت لها من الأمر - لم تبق ولا أسرة واحدة، ولا إنسان واحد، إلا وأطبقت عليه الحرب الخناق في حنجرته، وعندما كانت تأتي الأوراق السوداء - أصبحت مراسم الدفن في القرية الصغيرة تقام في اليوم الواحد في عدة بيوت، حيث يعم البكاء والمأساة الملعونة، وهكذا أخذ الدم يغلي في عروقنا، وأخذ شعور الثأر يعمي أبصارنا، ويحرق قلوبنا. إنني أفتخر، أنني في هذه الأيام الصعبة كنت قائدة للعمل، وحلّت عليَّ مصائب الغير ومصائبي الخاصة، وتقاسمت مع الشعب كل المصاعب، الجوع والبرد. ولهذا وحده، تمكنت من

الصمود مع الآخرين. وإلا لوقعت وطحنتني الحرب إلى غبار، ولقد أدركت آنذاك، أن للحرب دواء واحد - القتال، والنضال، والنصر، وإلا فالموت! وهكذا، لهذا أيتها الأرض العزيزة، كنت أقدم إلى هنا دائماً على الحصان، ولم أحب أن أزعجك، كنت أحييك صامته، وصامتة أعود أدراجي.

7

جاء اليوم، الذي وصلت فيه من قاسم رسالة، وفوراً امتطيت الحصان وأخذت أعدو بسرعة قصوى، دون أن أختار طريقاً ما، فعبر القنوات، وعبر الحفر والمرتفعات، والرسالة في يدي. بينما كانت عليمان مع جاياناك ينثرون أكوام السماد العضوي، فصرخت لهم وأنا أعدو على الحصان:

- تعالوا، تعالوا، - ثمة فرحة!

كيف كان من الممكن أن لا أفرحهم، وعلى جناح السرعة! فخلال شهرين لم يأت من قاسم ولو سطر واحد. ولم نعلم ماذا حصل له. وفي الرسالة قد كتب أنه شارك مرتين بالمعارك قرب موسكو، وخرج من المعركتين حياً، ويكتب أن الألمان قد توقفوا عن التقدم، وأننا كسرنا أسنانهم، كما يقال أن لواءهم الآن قد أعطي فرصة استراحة مؤقتة.

اطمأنت عليمان، وفرحت للأخبار في هذه الرسالة! قفزت عن العربة، وركضت مع جاياناك، فسبقته.

- ماما، الحلوانة عليك! - اختطفت الرسالة بأيد مرتجفة، وشعرت بسعادة غير محدودة، رغم أنها لا تستطيع القراءة. وكانت تقول شيئاً واحداً: - هو حي! إنه بصحة جيدة، إنه حي!

هنا هرعت النسوة، وأحطن بعليمان، وهنّ يطلبن منها:

- اقرئي لنا يا عليمان، ماذا يكتب زوجك؟ ربما كتب شيئاً عن رجالنا؟

أما هي فتقول:

- الآن، الآن يا عزيزاتي! - وهي لا تجيد قراءة سطر واحد.

لم يتحمل جايناك، وقال لعليمان:

- أعطني الرسالة، من الضروري قراءة الرسالة للناس.- أخذ الرسالة، وبدأ يقرأ بصوت عالٍ.

أما عليمان، فقد جلست القرفصاء، تمسك الثلج براحتي يديها، وتضع على جبهتها. أنهى جايناك قراءة الرسالة، فوقفت النسوة، كما وقفت عليمان، وذهبت دون أن تمسح آثار الثلج عن وجهها، حيث أخذ يذوب ويسيل على خديها، وهي فرحة مفعمة بالسعادة.

- الآن سنذهب للعمل! - قالت هي بهدوء، وسارت فوق الثلج.

سارت بهدوء، وأخذت تنظر من حولها. بماذا كانت تفكر في تلك الساعة؟ - فمن يعرف، بما تفكر، ربما تذكرت كيف ركضت نحو زوجها، وبيدها إبريق العيران في هذا المكان، بينما كان قاسم يعمل على الحصادة. وربما تذكرت كيف ودع قاسم الحصادة هنا. وبدت عليمان من جديد، أنها أخذت تعاني من الذكريات الغالية على قلبها. أما عيناها فكانتا تبتسمان أحياناً، وتذبلان أحياناً أخرى. أخذت تنظر طويلاً نحو الجبال، وربما تذكرت كيف ذهبت في الطريق تمتطي صهوة الرهوان السنجابي، وكيف كانت حوافره تطرق الطريق، وكيف كانت تركض هي خلف قاسم.

أما جايناك، فقد سار إلى جانبها. وأخذ يقلّدها، ويعيق مسيرها قائلاً:

- اصحي، أخيراً. عودي إلى ذاتك. أنت تفهمين بأن كل القرية سوف تضحك عليك إن لم تقدري على قراءة الرسالة، إيه، يا لك يا عليمان! سأكتب إلى قاسم، وأقول له: بأنني سأرسل زوجته إلى المدرسة، إلى الصف الأول من جديد، حتى تتعلمين الأحرف الأبجدية.

هجمت عليمان على جاياك، وأخذت تضربه مازحة بكلتا قبضتيها، ثم ركضت إلى العربة، وأخذ أحدهما يطارد الآخر.

سرت إلى البيت، وكنت أفكر، بالطبع من أحق من الشعب أن يحظى بشرف دفاع أبنائه الأبرار عنه، ويشرفني أن يكونوا أولادي في مقدمتهم! وكل ما أتمناه أن يعودوا أحياءً ومنتصرين، أما الصعوبات والمعاناة، فإننا سنتحملها ونصبر عليها. ولا يهمنا، لو بقينا عظاماً وجلوداً، وكل ما يهمنا أن نصل إلى النصر. يا حبذا لو حصل هذا بأسرع ما يمكن، لو جاء النصر بسرعة! ولم يكن هذا رغبتي وحدي، بل أمنية وأحلام كل الشعب. ومن أجل هذا كنت أعمل بلا حساب، ولم أرفض أي عمل، أو مهمة...

حتى عندما ذهب ابني الأصغر والأخير جاياك إلى الجبهة، قبل أن يبلغ ثمانية عشر عاماً من العمر، صككت على أسناني، وسكت، وصبرت.

حتى نهاية الشتاء، أخذت القيادة العسكرية في المنطقة، غالباً ما تطلبه للحضور. وليس له وحده، بل الكثير من الشباب، وكان يتم تدريبهم على الأعمال العسكرية. وأصبح هذا الأمر شيئاً اعتيادياً. ولم أعان شخصياً من هذا، يدربونهم عشرة أيام، ثم عشرة أخرى ويتركونهم إلى بيوتهم، وذات يوم عاد مسرعاً إلى البيت في اليوم الثاني بعد مغادرته، فسألته:

- كأنه في هذه المرة لم تطل غيبتك؟ - استغربت أنا، - أو هل سرحوك من الخدمة كلياً؟

- كلا، يا ماما، - أجاب جاياك، - غداً سوف أذهب من جديد. لقد سمحوا لنا أن نرتاح يوماً في البيت، وفي هذه المرة سوف نبقى هناك فترة طويلة نسبياً، ولذلك عليك أن لا تقلقي.

أما أنا فلم أصدق، وكان علي أن أحزر، لأنه كان يتصرف بشكل مختلف عن سابق عهده، وكأنه كان يجهز نفسه للغياب مدة طويلة. فمنذ الصباح حمل القدوم، ومسامير، وأخذ يصلح بعض الأمور في البيت. ثم أخذ يقطع الحطب، إذ نشر وكسر كومة كبيرة، ونقل المتبقيات من تحت المواشي إلى خارج البيت، ونقل الخصاب الذي كان على السطح إلى الداخل في الملحق بعد أن جففه، وحتى المساء عندما عدت إلى البيت، وجدته قد نظّف ساحة البيت كلياً، وأصلح مكان وعدة الحصان، وكانت هذه الأمور ضرورية وهي من مهام والده عندما كان في البيت، إذ كان يحب أن يكون الحصان جاهزاً دائماً في البيت.

لماذا ترهق نفسك بكل هذا، يا بني! ففي الصيف تصلح كل شيء، - قلت له بهدوء.

أما هو فقد أجابني: بأنه من الضروري إصلاحها، عندما يوجد وقت فراغ. وربما لا تسنح الفرصة لاحقاً، وعندها لم أفهم ما قصد به، ولم أفكر بشيء. فهو قد ذهب إلى الجبهة بناء على طلبه، اعتماداً على نداء منظمة الكومسومول، وعرفنا نحن بهذا، عندما أصبح جاياك في الطريق، لقد أرسل خبراً مع رفاقه الذين ودعوه في المحطة. آه يا بني المسكين، يا لك من شاب عنيد حبذا لو كتبت رسالة! وهل من الممكن أن تخرج من البيت على هذا الشكل، دون أن تودعني؟ وعلى الرغم من أنه سيجن جنوني، فالأمر لا يهم وكان

عليك أن تخبرني. ولقد طلب في رسالته مع أصدقائه السماح مني ومن عليمان لأنه خرج هكذا، ولم يودعنا، ويقول: هكذا أسهل، قطع الموضوع مرة واحدة، ويقول، لقد أردت بهذا، أن لا تتعذبوا، وحتى تعلموا بسفري بعد مغادرتي، عندها سوف تسلمون للأمر الواقع، وتوافقون معي. فمن يعرف، ربما كان هو على حق، بالطبع، كان الأمر صعباً أن يخبرنا مباشرة، وربما خاف، أنني سأعاني وأبكي. وأطلب منه أن يغير موقفه، ويعدل عن قراره...

والآن، عندما فقدته ومضى على ذلك أعوام عديدة، غالباً ما أتكلم معه، كما أتكلم مع الأرض الأم...

اسمعني يا جاياناك! أتضرع إلى الله أن لا يعذبك ضميرك، فأنا غير غاضبة منك، كلا. ففي تلك الأيام، قد سامحتك، آه يا جاياناك، يا بني الأصغر، ومهري الرائع، يا سعادتي وفرحتي! ربما تفكر أنني لم أفهم لماذا أنت غادرت دون أن تودعني، ولماذا تركتني وحيدة، ولماذا حرمت نفسك من شبابك المبكر، وشبابك الناضج والحياة في مستقبلك؟ إنك كنت شاباً مشاكساً عنيداً. وصريحاً، ولم يعلم الجميع كيف كنت تحب الناس. ولم يكن بإمكانك أن تكون غير مثالي وأنت تنظر إلى عذابنا، ولهذا غادرت. كنت ترغب بأنه على الناس أن يبقوا بشراً، وحتى تبقى الحرب عاجزة عن القضاء على الروح الإنسانية الصادقة، وحتى لا تسمم الحرب المشاعر الصحيحة الخيرة، والتعاطف عند وقوع المصيبة، وأنت قد عملت كل شيء من أجل هذا، فالبقاء دائماً في هذه الدنيا للأعمال الخيّرة، وكل شيء عدا ذلك ينتهي. عملك الطيب الرائع سيبقى إلى الأبد. لقد استشهدت منذ زمن بعيد، ولم نعرف أين وكيف ومتى استشهدت؟ وأين وكيف دفنت؟ لقد كتبت لنا في رسالة أنك تخدم كمظلي، وأنك قمت في

فرقة الإنزال بالهبوط داخل مناطق العدو الحساسة. وفي يوم من أيام عام ألف وتسعمئة وأربعة وأربعين، وفي دقيقة من ليلة ظلماء قفزت من الطائرة مع رفاقك، حتى تساعد الفدائيين، وفقدت في تلك المعركة. هل قُتلت في تلك الليلة، أو نتيجة رصاصة طائشة أصابتك، أو وقعت في الأسر، أو غرقت في مستنقع؟ لم يعلم أحد في حقيقة الأمر. ولو كنت على قيد الحياة، لكان قد وصلنا خبر ما خلال الثلاث سنوات. نعم، يا جاينك، وهكذا فقدتك من هذه الحياة، وحرمت منك. لقد غادرت شاباً يافعاً، ثمانية عشر عاماً، ولم يذكرك الناس جيداً. ولكن أعرفك أكثر من أي إنسان آخر، وأتذكرك، وسأتذكرك إلى الأبد، كيف غادرت إلى الجبهة، ولم تجرؤ أن تقول لي عن قرارك، لأنك كنت تحبني، وتخاف عليّ، وأذكر جيداً، كيف أعطيت فروتك الوحيدة لولد رأيته في المحطة مع أمه وثلاثة أخوة صغار له، تم إجلاؤهم من مناطق الجبهة، وكان الولد الأكبر عارياً تقريباً كلياً، وأنت عدت إلى البيت في جاكيت رقيق، - وأخذت أسنانك تطرق ليس على الأماكن المخصصة لها، وربما أصبح إنساناً كبيراً، وهو يتذكرك بين الحين والآخر كما كنت آنذاك شاباً، ولأنك الآن أصغر منه بكثير، وهو رجل كبير. ولكنك كنت أستاذاً له. فإن عمل الخير ليس ملقى على قارعة الطريق، ولا تجده بالمصادفة، فحتى يصبح الإنسان خيّراً يجب أن يدرس لدى الآخر، ويتعلم منه.

إيه! ما يمكن القول الآن، فالكلمات لا تساعد على شيء، فكم من البشر أهلكت الحرب تحت رحاها! ولو لم تكن الحرب، فأي إنسان رائع كان ابني جاينك من الناحية الروحية والجمالية!

والشيء الذي يقلقني جداً ويزعجني، أن ابني جاينك لم يأخذ من الزهور الاثنتي عشرة للحياة، زهرة واحدة يسر قلبي بها. أنت يا

جاينـاك قبـل مغادرتك بقليـل بـدأت تشـعر ببدايـة الحيـاة، وأنـا لا أعلـم حتى أية شابة، أحببت...

ثمـة آخـر شمعـة تشـتعل في روحـي، وقريبـاً سـتنطفئ. ولكـني أذكـر كـل شـيء، وخاصـة ذلـك اليـوم المشـؤوم، وسـيئ الحـظ عنـدما جاء ذلك الرجل الكهل يناديني من حقل الحراثة.

كـان هـذا في بدايـة الربيـع، حتـى الزهـور الأولى التـي تبـرز مـن تحـت الثلج لم تكـن قـد ظهـرت بعـد، والسـلف بـدأ لتـوه. فمـن جهـة الهضاب الصفراء عصفت وإلى الأسفل رياح دافئة، والأرض المحروقة قد جفت، وبدأت الأعشاب بالاخضرار.

في ذلك اليوم، كنا قد باشرنا بحراثة الأرض. ذهبت إلى هناك على الحصـان الـذي يـدعى ابـن آوى، علـى إثـر الجـرار، بينمـا كانـت الأثلام تتنفس هواء الشتاء، وخلال الطريق فكرت في ذاتي، مرَّ وقت طويل، ولم تأت أيّة أخبار من سوفانكول وقاسم.

في هـذا الوقـت وصـل إلى هنـا شـيخٌ مـن قريتنـا، واتضـح لـي أن الأمر الذي قدم من أجله، لم يكن مستعجلاً، فقلت له:

- لقد جئت في الوقت المناسب، فادعي لنا بالخير في بدء الموسم.

رفـع الشـيخ كفيـه نحـو السـماء، وهـو يجلـس علـى الحصـان، ومسد لحيته، وقال هامساً:

- فليوفق راعي الحصادين ديكان - بابا، ويبارك لكم ولنا، وعسى أن يكون الإنتاج كالفيضان. - ثمّ قال لي: - إن أحد المدراء في المنطقـة يطلـب حضـورك يـا تولغونـاي، إلى الإدارة، ولـذلك جئـت لأصطحبك إلى هناك.

- حسناً، الآن سنذهب أيها الشيخ.

اقتربت من الحرّاثين، وقلت لهم، أنني سأعود في المساء، لأشاهد العمل، وتوجهنا بعد هذا إلى القرية. أما ما يخص أن بعض المسؤولين يطلبون مقابلتي: ليس هذا بالأمر المثير، ولا يدهشني نهائياً. فهذا أمر طبيعي، وخاصة في بداية الزرع، فيأتينا مسؤولون مختلفون إلى القرية. سرنا بهدوء، وتحدثنا عن حياتنا، وسكتنا لاحقاً، بينما قال الشيخ خلال حديثه بحذر ما يلي:

- شكراً لك يا تولغوناي، إذ تقومين في هذه السنوات الصعبة على خدمة الشعب على الحصان، وبغض النظر عن أنك امرأة، فأنت رئيسة لنا كلنا، فاصمدي، يا تولغوناي، اصمدي بقوة في سرج الحصان. فإذا ما حصل شيء، فنحن جميعاً مساعدين لك، وأنت لنا. وبالطبع إن الأمر صعب بالنسبة لك، فالمصير الإنساني، كطريق الجبل: تصعد أحياناً، ثم تنزل، وتلقى حفرة في الطريق، عليك أن تدور حولها. يحصل للفرد، ما لم يكن يتوقعه وفوق إرادته، ولكن بمقدور العالم كله أن يقهر الأشياء الصعبة... وهكذا كما ترين في حياتنا الكثير من التقلبات...

مشينا عبر الشارع في القرية، وهنا لاحظت بالقرب من بيتنا جمهور من البشر. رأيت رؤوسهم خلف المدخنة. ولكن، لا أدري لماذا، لم أعط هذا الأمر أهمية. أخذ الكهل فجأة مقود حصاني، وقال لي: دون أن ينظر في عيني:

- انزلي، يا تولغوناي، عليك أن تسرعي.

توقفت ونظرت إليه مستغربة، بينما نزل هو عن حصانه، وأخذني من يدي وكرر:

- عليك أن تنزلي عن سرج الحصان، يا تولغوناي.

حتى هذا الوقت، لم أفهم شيئاً، ماذا في الأمر. ولكنني أخذت أعاني من حدس رهيب يحيط بكل أحاسيسي، أصبحت ميتة، وسرت مسرعة بهدوء، وعند ذلك شاهدت عليمان، وهي تسير نحو البيت مع ثلاث نساء. حيث كن يعملن بتعزيل وتنظيف القنوات. كانت عليمان تحمل فأساً على كتفها. مدت إحدى النسوة يدها، وأخذت الفأس من يد عليمان، وهنا فهمت كل شيء.

- ماذا أنتم فاعلون؟ ماذا ابتكرتم!؟ - صرخت حتى يسمع كل من في الشارع.

وعندما صرخت هرعت النسوة من ساحة بيت جارتنا عائشة، واقتربن مني صامتات كلياً، أمسكوا بيدي وقالوا:

- اصمدي، يا تولغوناي، لقد فقدنا صقورنا، لقد استشهد سوفانكول وقاسم.

سمعت في هذه اللحظة كيف صرخت عليمان، وكيف صرخت النسوة دفعة واحدة:

- يا للمصيبة أيها الأخوة! يا للمصيبة!

لم أعد أسمع شيئاً بعد هذا. لقد فقدت السمع فوراً. لقد فقدت السمع من قوة صراخي، واهتز الشارع تحت أقدامي. وبدا لي كأن الأشجار تتساقط، البيوت تتهدم، وفي صمت قاتل ظهرت أمام عيني، إما غيوم في السماء، أو وجوه عجيبة متغيرة وخرساء. حاولت التخلص، والانفلات، جمعت قواي حتى حررت يداي المضغوط عليهما في أيدي أشخاص كثر من حولي. لم أفهم من يمسكني، ولماذا يقف الناس عند البوابة؟ لقد رأيت فقط عليمان، رأيتها في وضوح واهن لا معنى له. لقد كانت مخيفة، مخدشة الوجه والدم ينزف منها بقوة. وشعرها قد تبعثر في كل الاتجاهات. وقد تمزق فستانها. لقد أمسكت النسوة

بيديها خلف ظهرها، أما هي فقد أفلتت منهن وهرعت نحوي راكضة وصرخت بكل صوتها، ولكنني لم أسمع شيئاً. وأنا انطلقت نحوها. لقد كانت عندي رغبة واحدة أن أذهب إليها لمساعدتها. حاولت المسير. وبدا لي كأنني مشيت دهراً بأكمله، حتى وصلت، وأخيراً التقينا. وفقط، عندما قذفت عليمان بنفسها نحوي وأحاطت رقبتي، عندها سمعت صراخها الغائر الأبح:

- ماما، أصبحت وإياك أرملتين يا أمي! أرملتين ثاكلتين بائستين! لقد انطفأت شمسنا. يوم أسود يا أمي! يوم أسود!

نعم، نحن أصبحنا أرملتين. أرملتين حماة وكنتها، لقد بكينا مصيرنا، وعانقنا بعضنا، وكل منا تبلل الأخرى بدموعها الغزيرة، الساخنة.

لكن أنا وعليمان لم نتمكن من أن نفرض إرادتنا. في اليوم السابع جاء سكان الكولخوز والكولخوزات المجاورة، حتى يعبروا عن حزنهم لفقدان الشهيدين، وقالوا لنا:

- إن الحداد سيكون طيلة العام، وهذا قليل، سوف نذكرهم إلى الأبد، ولكن على الإنسان الحي أن يعيش، وعسى أن تكون السنوات التي نقصت من حياتهما من نصيب ماصلبيك وجاياك (في هذه الأيام كنا كل أسبوع نستلم رسالة من جاياك) - وعسى أن يعودا منتصرين، أما بالنسبة لكما فنحن موافقون أن تخرجوا إلى العمل. فالوقت الآن، موسم زراعة، فالأرض لا تنتظر، فاصبرا، وأمسكا قلبيكما بأيديكما صابرتين، كونا معنا، وليكن هذا الموقف ثأراً من العدو، وسخرية منه.

تشاورتُ مع عليمان، واتفق رأينا مع رأي الناس.

في الصباح الباكر استعددنا للخروج إلى العمل. فجلب مدير الكولخوز أوسينباي ورقتين، قال: هاتان الورقتان وثيقتا دفن، حافظا عليهما: إن دفن قاسم قد تم في الكولخوز، وبالضبط، قبل نصف شهر. واستشهد في المعركة الدفاعية عن موسكو، في قرية أريخوفكا. وكنا نستعد للإعلان عن هذا، فوجئنا باستشهاد سوفانكول، وهو استشهد في الهجوم الكبير بالقرب من يلتس. ولم يبق لنا إلا أن نقول الحقيقة لأقاربنا وأخوتنا في القرية، واضطررنا أن يكون حفل التأبين في يوم واحد. وغير هذا لا يوجد لدي ما أحدثه. ومن جديد شددت الحزام بقوة، ومن جديد امتطيت حصان رئيس العمل.

فكرت، لو خارت قواي، وضعفت إرادتي. وأخذت أندب وألعن مصيري واستسلمت للمصيبة، فما الذي سيحصل مع عليمان؟ فهي كانت في وضع مأساوي وعلى استعداد أن تقتل نفسها، حتى كنت أخاف أن أتركها لوحدها. فالمصيبة لم تكن أقل بالنسبة لي، فأنا فقدت زوجي وابني. فمصيبتي كانت مزدوجة، وعلى الرغم من ذلك، فإن وضعي كان يختلف. لقد عشنا مع سوفانكول فترة لابأس بها، وعشنا الحلو والمر، ومررنا بصعوبات، وفرحنا في أوقات جميلة. لقد أنجبنا الأطفال، وكونا أسرة، وعملنا سوية. ولو لم تكن هذه الحرب اللعينة، لكنت مع أسرتي حتى نهاية حياتي، أما عليمان وقاسم فالأمر يختلف إنهما بدأا حياتهما الزوجية حديثاً، وحلما بحياة سعيدة في المستقبل، وأن يبنيا عشاً أسرياً. ولكن، وفي عز الشباب. بدأت الحرب وقطعت مصيرهما ببلطة مجرمة. بالطبع إن الجروح ستلتئم في المستقبل في قلب عليمان. والدنيا مليئة بالناس الجيدين، وستجد إنساناً آخر، وربما ستحبه مع الزمن. وستعود الحياة بأحلام جديدة. فكثيرات من النساء، اللواتي استشهد رجالهن تصرفن هكذا. عندما

انتهت الحرب تزوجن من جديد. ومنهن من أصبح سعيداً، ومنهن من عاش حياة عادية، ولكنهن لم يبقين وحيدات، وكثيرات منهن أصبحن أمهات، وزوجات ناجحات، وكثيرات منهن وجدن سعادتهن. ولكن ليس كل الناس متشابهين. يوجد بعض البشر ينسون بسرعة المصيبة، ويسلكون طرقاً جديدة للتأقلم مع الواقع، بينما يعاني الآخرون من حلول المصيبة مطولاً. ويراوحون في مكانهم، متخبطين في حبائل الشؤم والبؤس، وتعذيب الذات، ولا يجدون في أنفسهم القدرة لتجاوز ذكريات الماضي، وهذه عليمان كانت بطباعها من هؤلاء الناس، لم يكن بإمكانها أن تنسى ما كان، ولم يكن بمقدورها أن تستسلم للمصير. وهنا كان الخطأ من جانبي أيضاً، إذ كنت ضعيفة، ولم أتمكن من التغلب على الشفقة في نفسي...

في الربيع قام فريق العمل عندنا بحفر القنوات الرئيسة، وأنا كنت هناك ذات يوم، أنهينا العمل مبكراً، قبل غروب الشمس بقليل، وتفرق العمال إلى بيوتهم، وكان عليّ أن أرى ما فعل الحراثون في الجانب الآخر، ولذلك طلبت من عليمان أن تذهب إلى البيت أمامي، وسألحق بها. وبالقرب من مكاننا كان خص الحراثين، الذين جلسوا يتناولون عشاءهم، تحدثت وإياهم عن العمل، وعندما أنهينا اللقاء. خرجت من الخص، وهممت بالركوب على الحصان، شاهدت عليمان، واتضح لي أنها لم تغادر إلى البيت. بقيت وحيدة، وذهبت تجمع الخزامى فوق الهضبة، فهي كفتاة شابة وحساسة، كانت تحب الزهور. إيه، يا عليمان، عليمان، المسكينة، آه، يا كنتي التعيسة! كانت قد جمعت في يدها عشر زهرات خزامى كبيرة. لقد رغبت أن تحملها، كما يبدو، إلى البيت. وعندما شاهدتها مع الزهور غمرني العرق الساخن، وسال على جبهتي.

تذكرت، كيف قامت بجمع الزهور، عندما كنا نعمل بجمع الحشائش، وخاصة زهور الخبيزة البرية، وبعد أن جمعتها آنذاك. وقفت في مكانها، كما تقف الآن. وكانت آنذاك في منديل أحمر على رأسها، والزهور بيديها بيضاء، أما الآن فهي في منديل أسود، وفي أيديها تحمل زهور حمراء، وهذا هو الفرق. ولقد اخترق هذا المشهد قلبي، حتى أعماقه! أما عليمان فقد رفعت رأسها، نظرت من حولها، اكفهرت، حدقت بحزن إلى الزهور في يدها، وكأنها تتساءل مع نفسها: لمن أقدمها الآن، وإلى أين؟... اختلجت في مكانها، وهوت على وجهها، وأخذت تمزق وتقطع الزهور إلى قطع، ومرغت بها وجه الأرض، ثم هدأت، واضعة يديها على وجهها، واضطجعت، وهي تهز كتفيها. اختفيت خلف الخص حتى لا تلاحظني، وفكرت في نفسي، أدعها تبكي، ربما يصبح الأمر أسهل عليها. ثم نهضت من مكانها ووقفت، وأخذت تركض مسرعة فوق الهضبة نحو النهر. خفت عليها، وانطلقت مسرعة على الحصان خلفها. كان من المرعب جداً أن أنظر إليها. وكيف ركضت كنتي في منديلها الأسود عبر الأرض المحروثة الحمراء!

- عليمان! توقفي! ماذا أصابك؟ توقفي يا عليمان! - أخذت أصرخ بأعلى صوتي، أما هي فلم تتوقف.

ركضت حتى الطريق، الذي سار عليه في زمن ماضي الرهوان السنجابي، وهناك لحقتُ بها.

- ماما! لا تقولي لي شيئاً! ماما، لا تقولي شيئاً، أرجوك ليس ضرورياً!

شددت مقود الحصان، فوقف في مكانه، أما هي فهرعت نحوي، أمسكت عرف الحصان، وانحنت نحو رجلي، وأخذت

تبكي. التزمت الصمت. وما كان عليّ أن أقول لها؟ ثم رفعت رأسها، فبدا وجهها وقد تلطخ بالوحل الذي تكون من الغبار والدموع على وجهها، وقالت وهي تتلعثم بالكلام:

- انظري، يا ماما، كيف تشع الشمس. انظري أي سماء فوقنا، وكيف أزهر الحقل! وقاسم لم يعد، هل من الممكن أن لا يعود نهائياً؟ لم يعد مطلقاً؟

- كلا، لم يعد - أجبتها بحسرة.

تنهدت عليمان بصعوبة وحزن دفين.

- سامحيني، يا أمي، - قالت عليمان بهدوء - أردت أن أركض إلى هناك وأن أموت هناك معه.

لم أتحمل كل هذا، فبكيت، ولم أقل شيئاً، ولكن لو كنت حكيمة، أو بعيدة النظر، كان عليّ أن أقول لها بكل تصميم: "ماذا حلّ بك، يا بنيتي الصغيرة؟ فأنت لست وحيدة، كم شابة مثلك ترملت، - من غير الممكن عدهم وإحصاؤهم. اصبري يا عليمان. وكيف لك أن لا تستغربي نفسك، وأنت تسمعين ما تقولين! - انس قاسم. كل ما جرى، لا يعود. سيأتي وقت - وتجدين إنساناً يعجبك. وإذا لم تتمالكي أعصابك، فإن الأمور ستكون أسوأ بالنسبة لك. فلا تقتلي نفسك بيدك، فأنت مازلت شابة، وعليك أن تعيشي حياتك". وكم أنا نادمة الآن، أنني لم أتجرأ آنذاك قول هذه الحقيقة المرة والوحيدة. وفيما بعد، كم حدث أن كانت هناك فرص مناسبة، وانتظمت هذه الكلمات على لساني، ولكني لم أقل هذا، ثمة قوة خفية قاهرة كانت تمنعني. نعم، وحتى عليمان نفسها لم ترغب بسماعي. فلكل إنسان، كما يبدو، توجد كلمات لوقتها، فطرق الحديد، عندما يكون حامياً أحمر، وإذا تجاوزك الزمن، فإن

الكلمة تبرد، وتتحجر وتبقى قابعة فوق الروح حملاً وعبئاً ثقيلين، يصبح من الصعب أن يتحرر الإنسان منه. فأنا أقول الآن، بعد أن مرت عدة سنوات، وعند ذلك في أعياد وأشغال كل يوم، واهتماماته ومعاناته وخلال الحاجة الكولخوزية كان من الصعب التفكير، وعلينا أن نخلص إلى حقيقة، ماذا إلى أي شيء. فكل ما ننتظره، والتفكير كله كان عن شيء واحد - حبذا لو يأتي النصر سريعاً، حبذا توضع نقطة نهاية الحرب، وكل ما عدا ذلك سيكون فيما بعد. - وكنت أفكر: ستنتهي الحرب، وعند ذلك ستكون الأمور في مكانها بشكل طبيعي. ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك...

8

- أيّتها الأرض - الأم، لماذا لا تقع الجبال، لماذا لا تفيض البحيرات، عندما يستشهد الرجال مثل سوفانكول وقاسم؟ فكلاهما - الأب والابن كانا حصادين عظيمين للقمح. فالعالم منذ القدم، كان يقف على أكتاف أمثال هؤلاء، فهم كانوا يطعمونه، ويسقونه، وفي الحرب هم أول من يدافع عنه، وهم أول من يرتدي الألبسة العسكرية للدفاع عن الأوطان. فلو لم تكن الحرب، فكم كان من الممكن لسوفانكول وقاسم أن يعملا، وينتجا، وكم كان عدد الناس، الذين كان بإمكانهم أن يستفيدوا من نتائج أعمالهم. وكم من الأفراح الحياتية كان بإمكانهم أن يشهدوا! أرجوك، أيتها الأرض الأم، أن تقولي لي، قولي الحقيقة: هل بإمكان الناس أن يعيشوا بلا حروب؟

- أنتِ يا تولغوناي، قد طرحتِ سؤالاً صعباً، كانت فوقي تعيش شعوب وقبائل، وقد ابتلعتهم الحروب عبر الأزمان، كانت المدن

المزدهرة، فاشتعلت بالنار، وغطاها الرمل والتراب. ومرت قرون، وكنت أحلم بالبشر يسيرون فوقي. وفي كل مرة كان يشعل البشر الحرب فيها. كنت أصرخ من تحتهم: "توقفوا، لا تهرقوا الدماء!" وأنا الآن أكرر دائماً: "أيها البشر خلف الجبال، وراء البحار: يا أيها البشر القاطنون والعائشون في هذا الكون، ماذا يلزمكم - أرض؟ فهذه أنا - الأرض كلها! أتعامل معكم على درجة واحدة من المساواة، وأنتم جميعاً بالنسبة لي كأسنان المشط، لا تلزمني أحاديثكم، تلزمني صداقتكم، وعملكم! اقذفوا إلى التلم حبة واحدة - فأنا أعطيكم مئة حبة. واغرسوا عوداً أو فرعاً صغيراً من شجرة - فأعطيكم شجرة وثمار كثيرة، واغرسوا حديقة - وأنا سأعطيكم كافة الثمار، اهتموا بتربية الحيوانات - وأنا سوف أنبت من العشب ما يكفيها، ابنوا البيوت، وأنا سأكون جدراناً لها - توالدوا وتكاثروا - فسأكون لكم جميعاً مسكناً رائعاً - ممتعاً. فأنا بلا حدود. وبلا نهاية، فأنا عميقة جداً، ومرتفعة جداً، ولديَّ من الشمس ما يكفيكم جميعاً وأنت يا تولغوناي، تسألين: هل بإمكان الناس أن يعيشوا بلا حروب، فهذا لا يرتبط بي - فالمسألة مرتبطة بكم، بكم أنتم الناس، مرتبطة بإرادتكم وعقولكم.

- وكيف تفكرين أيّتها الأرض - الأم الحنونة، إن الحروب تقضي على أحسن وأفضل الكادحين والمهنيين الممتازين، وأنا غير موافقة مع من يقول هذا، وكنت كل حياتي غير موافقة! فبإمكان الناس أن يحولوا دون وقوع الحرب.

- وأنت يا تولغوناي، تفكرين، أنني لا أعاني من الحرب؟ حقاً إنني أعاني كثيراً. وأنا أشتاق بعد كل حرب إلى الأيادي التي عملت، وكدحت ثم دمرتها الحروب، وأنا أبكي أولادي إلى الأبد، وخاصة

الحصادين للقمح، وأشعر بفراغ لغياب سوفانكول، وقاسم، جايناك، وغيرهم من الجنود الذين استشهدوا. وعندما أبقى بلا فلاحة، وعندما تبقى الحقول غير محصودة، والقمح غير مطحون، أناديهم: "أين أنتم، يا حراثون، أين أنتم، يا زراعي الأعزاء؟ انهضوا، يا أولادي، الحصادون، هبوا جميعاً، ساعدوني، إنني أختنق، وأموت!" ولو جاء سوفانكول حاملاً فأسه بيده، ولو جاء قاسم يسوق حصادته، ولو جاء جايناك يحث الأحصنة، ويضع بمريته لينقل القمح إلى البيدر! ولكنهم، للأسف لا يردون عليّ...

- شكراً لك، أيّتها الأرض. وهذا يعني أنك مشتاقة لهم، كما أشتاق أنا، وتبكيهم، كما أبكيهم. شكراً لك أيّتها الأرض.

9

العامان الثالث والرابع من الحرب. بعثا الطمأنينة في أنفسنا تارة، والحزن تارة أخرى: كنا نطرد العدو خطوة فخطوة - الروح كانت تبتهج، ولكن مع كل يوم كان يمر، كانت الحياة تصبح أصعب، وأصعب. ففي الخريف كانت الأمور محتملة، حاولنا تصليح العجلات المكسرة لجني محصول البطاطا في الخريف، وكنا نجمع البطاطا من الحواكير لنؤمن شيئاً من الغذاء، أما في عمق الشتاء، كان يبدأ الجوع يكشر عن أسنانه، وخاصة في الربيع، وفي الأيام الصفراء الصيفية كنا نعاني معاناة كبيرة. بينما كان بعض الناس، بالكاد يحصلون على جذور بعض النباتات الغريبة، أو الأعشاب، أو شيء من الحليب المخلوط مع كمية كبيرة من الماء. أما أنا وعليمان، كنا نعمل، ولم يتعلق الأطفال بأطراف ثيابنا، طالبين المساعدة. وأصبحت الأمور لا تطاق من الناحية الإنسانية، عندما كان الأطفال

يعانون من الجوع، وخاصة في الأسر، ذات الأولاد الكثيرة، وأصبح الأطفال نصف عراة، حفاة، بطونهم خاوية بادية للعيان، ووجوههم منتفخة ينظرون إلى أيدي المارة، طالبين قطعة من الخبز، ولو قالوا لي: "اذهبي إلى الجبهة أيضاً، واستشهدي هناك - عندها ستنتهي الحرب، والأولاد سيشبعون". - لما توقفت لحظة واحدة، حتى لا أرى أعينهم الجائعة. وذات مرة جلسنا نتحدث أنا وعليمان حول هذا الموضوع، نظرت إليّ وقالت:

- وأنا أيضاً، كان من الممكن أن أتصرف هكذا، لأن الشيء الصعب والمخيف، أن الأولاد لا يفهمون لماذا عليهم أن يعانوا من الجوع، فالكبار يجبرون أنفسهم على الصبر، لأنهم يدركون الظروف، ويعرفون الأسباب، ويفهمون أنه ستكون نهاية لهذه الحرب، عاجلاً أم آجلاً. أما الأولاد لا يفهمون. وما دام آباؤهم يحاربون في الجبهة، وغائبون، علينا أن نوفر الخبز لهم. ولم يبق لنا أيتها الأم معك إلا هذا. وإلا لفقدت الحياة آخر معانيها...

كان كل شيء، وبلا تقسيم، مخصص للحرب: الحياة والعمل، والإرادة، وحتى عصيدة الأطفال - كل شيء. كل شيء، حتى حبة القمح كانت تذهب إلى طاحونة الحرب الملعونة. وكان هناك أناس، لم يرغبوا أن يتقاسموا مع الحرب أي شيء، نعم لماذا علينا أن نخفي، لقد كان مثل هؤلاء بيننا! زد على ذلك، أنهم لم يعطوا أحداً من حصتهم، بل كانوا يطمعون لنزع قطعة الخبز التي في أيدينا.

ذات مرة، تهت الطريق. كان ذلك في عام ثلاثة وأربعين. وكما أذكر، في وسط الشتاء، أو، بالأصح في نهاية الشتاء حدث ذلك. عم

الظلام الحقول شبه العارية كلياً، بينما كان الزجاج يتجمد في نوافذ البيوت البسيطة خلال الليل.

ومن يعرف، في أية ساعة من الليل نحن الآن - كنا قد خلدنا إلى النوم مبكراً، - حيث دق شخص ما على زجاج النافذة، حتى خفت أن ينكسر الزجاج.

- استيقظي يا تولغوناي! يا رئيسة العمل! انهضي! - أخذ يصرخ شخص ما من جهة الشارع.

خفنا، كنت وعليمان وحدنا، وهببنا واقفتين من فراشينا.

- ماذا يا ماما! همست عليمان في الظلمة، وبصوت راجف، وكأنها انتظرت شيئاً مخيفاً ومرعباً.

إيه! يا لها من حرب ملعونة، ولكن الأمل دائماً موجود! لقد ارتجف قلبي من الهلع، وشيء خفي من سعادة ضبابية: "ربما عاد أحد من شبابنا؟" - واقتربت من النافذة وسألت بصوت مرتجف:

- مَنْ هناك؟ مَنْ أنت؟

- اخرجي، يا تولغوناي! بسرعة! لقد سرقوا الأحصنة! - أجاب صوت ما خلف النافذة.

أشعلت عليمان المصباح، ارتدت الجزمة بسرعة، ولبست حزاماً، وركضت خارجة إلى الشارع، ثم توجهت إلى الإسطبل. كان هناك أناس من القرية، وحتى مدير الكولخوز. وظهر أن السارقين قد أخذوا ثلاثة أحصنة، أحسن الموجود لدينا، وقد اعتنينا بهم من أجل الحراثة. وقال سايس الخيل، أنه ذهب إلى مستودع العلف، كي يجلب الحشائش اليابسة لوجبة الليل، وعندما عاد، كان السارقون قد أطفؤوا النور، ففكرت أن الريح قد أطفأته، فأشعلت المصباح بهدوء، نظرت حولي فلم أجد الخيول الثلاثة، وأمكنتهم شاغرة.

في هذا الوقت، بالنسبة للكولخوز، أن يفقد ثلاثة من الخيول الأساسية كانت خسارة كبيرة، وكأن الكولخوز يفقد عشرة جرارات الآن. وإذا فكرنا بعمق أكثر، هذا يعادل حرمان الكولخوز من قوة العمل هذه، وكأنه يتم حرمان الجنود في الجبهة من قطعة خبز ضرورية لمتابعة الجهاد. أسرجنا الخيول، وأخذ بعض الرجال سلاحاً معهم، وانطلق الجميع مسرعين، ولو لحقنا بالسارقين لن نرحمهم مطلقاً، وأعطينا كلمة شرف، لن نرحمهم مطلقاً!

خرجنا من القرية، وانقسمنا إلى مجموعات، توجهت كل مجموعة إلى جهة ما، ولقد كان تحت السرج من تحتي حصان قبائلي، نشيط جداً، وحاد في عدوه، وهو رشيق ضامر. أطلقت له العنان، فانطلق بسرعة، وأذكر أنني تجاوزت القناة الكبرى، واتجهت نحو الجبال، بينما كان يركض خلفي اثنان من رجالنا، نظرت خلفي - لم أجد أحداً. إما ذهبا إلى جهة أخرى، وإما أنا ابتعدت عنهما. فالخطأ كان غير مقبول في الليل؛ كان ضوء القمر ضعيفاً عبر الضباب، ولم يشاهد الإنسان ما يحدث على مسافة عشرين متراً، إذ تعم الظلمة. ولكني لم أكن أفكر بهذا آنذاك: كنت أفكر كيف لي أن ألحق بسارقي الخيول: لقد كان الأمر مزعجاً ومغضباً، حتى أني لم أعد أدقق إلى أين سيحملني الحصان، ولكن عندما توقف في مكانه فجأة نظرت إلى الأمام - كان أمامنا واد عميق، لقد وصلنا إلى حافة الجبل، كان القمر يسبح بهدوء فوق سلسلة الجبال القائمة، وخفتت النجوم كلياً، ومن حولي لم يكن أي بصيص ضوء. وإلى الأسفل انزلقت رياح باردة متقطعة، وانتشر صوت حفيف أوراق يابسة مع شيء من الصفير الخافت، ومن الجهة الأخرى، وفوق قبور قديمة، كانت مبنية من الطين والبيتون، وقفت بومة، ذات رأس كبير، أخذت تتعق مع مجموعة من حولها.

نزلتُ في المضيق الجبلي، لم يكن هناك شيئاً مسموعاً. وأخافتني ثعلبة، خرجت من مغارة، وهربت، وبدت بلون أزرق خافت تحت ضوء القمر، ولم أشاهد أياً كان من الكائنات غيرها.

عدت متجهة نحو القرية. وسرت فوق المضيق الجبلي، وتذكرت: كان الناس يتحدثون عن شخص يدعى جينشينكول، يتسكع في القرية، هرب من الجيش، ومعه اثنين مثله، من أصدقائه، وهم من الهضاب الصفراء، ويختفون هنا في الجبال. لم أصدق مثل هذه الحكايات. ولم أفهم كيف من الممكن أن يخبئ الإنسان رأسه، عندما يكون المجتمع كله في خطر. وبالتالي هذا يعني أن البعض يقاتلون واستشهدوا، بينما يجلس الآخرون خلف ظهورهم؟ وتصورت أنه ليس في المجتمع من يقوم بهذا الدور الدنيء. وهنا أحاطني الشك قليلاً. في القرية نعرف بعضنا البعض، كما يعرف الإنسان أصابعه الخمسة. وأعتقد، لا يوجد بين سكان القرية من كان بإمكانه أن ينزلق لدرجة سرقة خيول الكولخوز، الذي يعيش فيه. هذا بالإضافة إلى أن الحصان، ليس إبرة. لا يمكنك أن تخفيه في قبة فروتك، أضف إلى ذلك، ثلاثة أحصنة دفعة واحدة. هذا يعني أن السارقين، قد جاؤوا من جهة ما، وإنهم الآن يختبئون إما في الجبال، وإما في السهوب. وإذا كان حقاً جينشينكول هارباً من الجيش، فهو الذي فعل هذا بذاته. حصرت أفكاري جيداً بهذا، ولكن التأكد من هذا كان يحتاج إلى بحث، وكما يقال: إذا لم تمسك السارق من يده، فهو ليس بحرامي، ولم يره أحد بالعين.

ثلاثة أحصنة، - طقم حراثة لمحراث ذي سكتين. لقد ربينا هذه الأحصنة بمتاعب كثيرة كابدتها مع سوفانكول، وعلمناهم الركوب من صغرهم. أربعة أحصنة، كانوا يطيرون بالمحراث. أسفت

جداً، ولكن من الصعب عمل شيئاً ما. وصلت إلى المنطقة المحروثة، وبدأ شيء ما، نسيت فيه البحث عن السارقين، أو التفكير بأكبر من ذلك، لقد هذا الربيع أصعب ربيع خلال حياتي كلها فالشعب - شعب ليس مخطئاً، فالناس أرادوا العمل، وتعذبوا كثيراً، ولكن ليس بإمكان الإنسان أو الحيوان أن يعمل ومعدته فارغة. ورغم كل ذلك، ما كانت تنتجه ورشة العمل خلال يوم، يكفي في أيامنا هذه لمدة أسبوع. ولذلك تأخرت الأعمال، وتأخر الزرع، زد على ذلك مصيبة أخرى، وهي أنه لا يوجد بذار، وكنا نترجى حبة فحبة للبذار من إدارات الكولخوزات. وبصعوبة كنا نؤمن العلف، وبكثير من الصعوبات حققنا خطة العمل للكولخوز.

في هذه الأيام تعمقت بالتفكر في حياتنا فنحن لم نستلم أي شيء مقابل عملنا، وكنا نتغذى بما تبقى من حبوب قديمة في زوايا مستودعات الأسرة، أما الآن كيف العمل؟ هل لنا أن نتفرق في العالم ويتجه كل منا إلى الجهة التي تقوده إليها عيناه؟ كلا، هذا يعني أن نفقد أنفسنا، فماذا علينا أن نعمل لاحقاً؟ حسناً سوف نستمر بصعوبة حتى الخريف، وربما سنجتاز الشتاء بألف صعوبة، ولكن ماذا سنعمل في الربيع الصعب لدينا، ومن جديد علينا أن نجبر الناس على العمل، والناس نصفهم جياع ضعفاء وواهنون، وبدون عمل سنفقد معنى الحياة.

لقد فكرت بطرق مختلفة، ولم أعرف النوم عدة ليالٍ، وبدت لي بعض الأفكار: لنزرع الأرض البكر الخيرة التي كانت قليلة من أجل أن نتقاسم الإنتاج بين الأسرة تشاورت مع مدير الكولخوز، ووصلت مع اقتراحي إلى اللجنة المنطقية وشرحت لهم أننا نفذنا الخطة، وهذا الذي سنقوم به فوق الخطة، وبجهودنا الخاصة مقابل

العمل النشيط الذي يقوم به الناس، وكل هذا حتى يكتفون شر الجوع والعوز، وحتى لا يخرج الناس عن طورهم، إذ أن شخصاً ما من خلف الطاولة قال لي بحدّة:

- أنتِ يا تولغوناي تخرقين النظام الستاليني للكولخوزات!

لم أصبر، وفقدت طاقتي على التحمل، فأجبت:

- وليسقط هذا النظام! فعندما نجوع من العوز فمن سيطعمكم أيّها المسؤولون عندئذ؟

- أما أنتِ، - قال معقباً، - هل تعرفين أين ماكار قد أخفى العجول؟

- أعرف جيداً. أرسلوا، إذا كان هذا يهوّن عليكم الأمر

- ولكن عليكم أن تفكروا جيداً في بداية الأمر، فمن سيزرع القمح للجنود في الجبهة؟

ارتفع الضجيج في اللجنة المنطقية، وتدافعوا، وفي النهاية وافقوا، إذ قالوا: سنوافق على مسؤوليتك الخاصة، والقضية لم تكن في المسؤولية، وعلى عاتق من، بل في توفير البذور، ففي الكولخوز عليك أن تدبر نفسك: فما كان لدينا زرعناه. وصلت إلى نتيجة، فجمعت الورشة كاملة في القرية، من الصغير حتى الكبير ليس في اجتماع ولكن في شيء يشبه المجلس الأسري للكولخوز، وقلت لهم:

- تعالوا نفكر، كيف سنتصرف؟ فعلى كل منّا أن لا يأمل في أن يحصل على شيء مما هو مزروع في الأرض، وأنتم تعرفون أن كل شيء سيكون للجبهة، وإذا بقي شيء ما فهو لبذار السنة اللقادمة. أما الآن فإذا وجدنا بذاراً فتوجد لدينا إمكانية أن نزرع القمح لمساعدة أسر عديدة الأطفال، والكهلة والأيتام، وإذا صدقتموني، فأنا

سأتحمل المسؤولية، والأمر الآن ينحصر في مساعينا. وعلى كل منا أن يقدم ما تبقى من البذور الذهبية القليلة في كيس أو صرة أو جرة عسى أن نجمع كيسين من البذار. فلا تغضبوا مني، ولنقسم قطعة خبز فيما بيننا، ولنجوع، سنتحمل كل الصعوبات، وسيعيش الأطفال على حليب أمهاتهم حتى الحصاد، وعندها كل حبة بذار ستعود علينا أكثر من مئة مرة. شدوا الأحزمة أيها الأعزاء واصبروا وهبوا للتضحية من أجل أنفسكم، ومن أجل الأطفال، فلا تندموا، صدقوا مشاعري كأم وأتكلم لمصلحتكم. ساعدوني ما دام يوجد وقت لزرع القمح...

في الاجتماع، ظهر الجميع وكأنهم إلى جانبي ويدعمونني، وعندما بدأ الأمر بالتنفيذ كان كل شيء صعباً ومخيفاً للغاية، وأكثر ما أخافني عندما كانت الأمهات التي لديها العديد من الأطفال تخرج من ساحات بيوتهن، وهم يلعنون كل شيء في هذه الدنيا: الحرب وهذه الحياة والأولاد والكولخوز ويلعنوني أيضاً، علماً أن الناس قد اقتطعوا جزءاً من أرواحهم وقلوبهم، وأعطى كل واحد ما كان يقدر عليه، فمنهم من أعطى نصف بود [1]، وبعضهم أقل، وآخر كيلوغراماً كان يرغب بسلقه لأولاده، وكنت أفهم أن الناس أعطوا كل ما لديهم من قمح، وكنت آخذها مرغمة، وضعتها في أكياس بالحفنة، وهكذا مررت بكل البيوت على العربة، رجوت وطلبت وأحياناً رفعت صوتي غاضبة وانتزعت بصعوبة من أيادي البعض. ولكن الشيء الوحيد الذي كان يعزيني، أنه قريباً في فصل الخريف سيشكرني الناس عندما سأعطيهم مقابل كل حفنة قمح بوداً كاملاً من القمح.

---

[1] البود - وحدة أوزان تقدر بـ 16.38 كيلو غراماً.

لم أنسَ مطلقاً كيف تناقشت مع جارتي عائشة فهي كانت تشكو من سوء صحتها دائماً، فقدت زوجها جامانباي باكراً حيث مات قبل الحرب، وبقيت وحيدة عليلة مع ابنها الوحيد بيكتاش، كانت تعمل في الكولخوز عندما تشعر أن صحتها جيدة. وكان لديها بقرة في جنب بيتها، كانت تعيش على حليبها مع ابنها حتى كبر، وفي ذلك اليوم كنا نجمع البذار على عربته من بيوت القرية، وعندما اقتربنا من بيتهم، سألته:

- يا بيكتاش، هل يوجد لديكم بعض القمح في البيت؟

- يوجد كمية قليلة. أجابني الشاب بصوت خافت في المخلاة خلف الموقد.

- اذهب واجلب ما تعطيك أمك، - قلت له.

- كلا، يا خالتي تولغوناي، اذهبي بنفسك، - طلب هو مني.

أخذت عائشة المريضة تتعافى من مرضها تدريجياً. كانت تجلس فوق اللبادة وهي تلف ظهرها بمنديل صوفي سميك، وقلت لها:

- عائشة لقد جئتُ إليك لأخذ كمية من القمح كما يفعل الآخرون.

- كل ما لدينا هناك، - وأشارت إلى المخلاة خلف الموقد.

- كم يوجد. ليس من أجل الحسنة أنت تعطي، فهذا سنأخذه كبذار، فالأرض جاهزة تنتظر الزرع، فلا تؤخريني يا عائشة، - أخذت ألحّ عليها.

أمّا هي فقد عضّت على شفتها، وأخفضت رأسها صامتة: آه منك أيها العوز البائس والتعس، فكم أنت تحوّل طبائع البشر!

- فكري يا عائشة، فأنت ربما من الأفضل لك أن تعيشي عشرة إلى خمسة عشر يوماً بصورة أفضل، ولكن عليك أن تفكري

بالمستقبل في الشتاء القادم، وخاصة في الربيع، من أجل ابنك، أرجوك يا عائشة فهو ينتظرني في الشارع مع العربة.

رفعت عينيها ونظرت نحوي بتضرع، ثم قالت:

- لو كان يوجد هل تفكرين أنني لا أعطيك؟ وأنتِ تعلمين يا تولغوناي جيداً، وتعرفيني يا جارتي فأنا إلى جانبك منذ أمد بعيد.

فكرتُ وأحسست أنني لن أصمد أمام تضرعها، ولكنني قذفت بالشفقة جانباً وقاطعتها قائلة:

- الآن جئت إليك ليس كجارة، بل كقائد للعمل، وباسم الشعب سوف آخذ هذه الحبوب منك! ثم وقفت وأخذت المخلاة من مكانها، بينما استدارت عائشة بظهرها.

كان في المخلاة سبعة كيلوغرامات تقريباً من القمح، رغبت أن آخذ كل الكمية، ولكنني لم أقسُ عليها، وأبقيت نصف الكمية في سطل فارغ، وقلت لها:

- انظري يا عائشة، لقد أخذت نصف الكمية، لا تغضبي مني.

التفتت نحوي، فرأيت الدموع تتدحرج على وجنتيها وذقنها. شعرت آنذاك بشيء من الذنب، وخرجت مسرعة من البيت. آه، لماذا لم أعد المخلاة إلى مكانها؟ ولكن من أين لي أن أعرف، ماذا سيحصل نتيجة لجمع هذه الحبوب من قبلي؟

جمعت من البذور كيسين كبيرين، قمنا بتمرير القمح عبر الغربال ونظفناه جيداً من الحبوب الغريبة حبة، حبة، وأخذت القمح إلى الصومعة، وكان بإمكاني أن أتمهل قليلاً ولكن كان عليَّ أن أحرث بقية قطعة الأرض، ولم أسرع لزرع هذه الأرض، ومنذ طلوع الفجر جهزت نفسي أن أبذرها بيدي، وكل شيء كان جاهزاً، الحبوب والحقل محروث، وتم كل شيء كما كان مقرراً وكما خططت.

عدت مساء من العمل إلى البيت، ولكنني كنت قلقة روحياً، فلم أجد لنفسي مكاناً. لقد رأيت بيكتاش عند الظهيرة ومعه شاب كانا ينقلان الخراف إلى الأرض، فالأولاد مهما كانوا أذكياء يبقون أولاداً، ولم أكن على ثقة بعملهما، وهل نفذا المهمة كما يجب، فقلت لعليمان:

- سأذهب إلى الشباب وأتفحص ما يعملون.

امتطيت الحصان وانطلقت. وعندما خرجتُ من القرية، جعلت الحصان يمشي خبباً: كان الضباب منتشراً بشكل كثيف، وأخذت الظلمة تخيم فوق الأرض، وصلت إلى الجسر، وجدت الثيران واقفة في الأرض المحروثة تحت النير، وليس من أحد إلى جانبهم، فغضبت من الولد - الحراث: فكرت، انتظر أيها المسخ، سأريك، سأعطيك ما يلزمك، اهرب من وجهي حيثما تريد، تحركت وأخذت أبحث عنه، وفجأة، شاهدت العربة منقلبة على جانبها ولكن لم يكن أحد جانبها.

- إي، يا شباب! أين أنتم؟ أجيبوا! - أخذت أنادي بأعلى صوتي:

لم يجب أحد وليس من روح حولنا، فماذا حصل معهم؟ إلى أين اختفوا؟ دب الخوف في قلبي فركضت مسرعة إلى الخص ترجلت عن الحصان، أشعلت عود ثقاب، كان الشباب مرميين فوق الأرض في الخص، وأيديهم قد قيدت بشدة، وأوجههم ملطخة بالدماء، وتم ضربهم وتعذيبهم بشكل مبرح، وفي حلوقهم وضعت أشياء مختلفة، نزعت الكمامة عن فم بيكتاش.

- أين البذار؟ أين البذار؟ صرخت بصوت لا يشبه صوتي.

- أخذوا البذار! قتلوني! قال بيكتاش محشرجاً ولوى رأسه إلى الجهة التي هرب إليها السارقون.

أما فيما بعد فلا أذكر، ماذا حدث لي. منذ طفولتي لم أسرع على الحصان كما أسرعت في تلك الليلة المظلمة، وأي ظلمة، فقد كانت أشدّ من ظلمة القبور العميقة. فلو كانوا قد أحرقوا بيتي ونهبوا كل شيء فيه لما قلت شيئاً ما، ولم أغضب كما أنا غاضبة الآن، ولو أخذوا عن البيدر عشرة أكياس من القمح لتحملت الأمر، الفئران تسحب أيضاً حصتها عن البيدر، ولكن طالما الأمر يخص هذا البذار الذي جمعناه بشق النفس، وهذا البذار هو أساس مستقبلنا، فإنني لن أسكت عن هذا، وإذا التقيت بهم فإنني سأخنقهم بيديّ.

وتبيّن لي أنني أسرع العدو على الحصان في ملاحقة السارقين، وفجأة رأيتهم، إذ بدأت الشرارات تتبعث تحت حوافر الخيل ولقد حمل السارقون أكياس القمح أمامهم فوق السروج، واتجهوا إلى الجبال.

عندما رأيتهم أخذت أصرخ، وأطلب منهم:

- اتركوا أكياس القمح فهو بذار، اتركوا هذا بذار! بذار هذا! لم يلتفت أي منهم للخلف، أما المسافة التي كانت بيننا، أخذت تصبح أقصر وأقصر، ورأيت كيف كان واحد منهم وهو في الطرف الآخر يعدو على الرهوان السنجابي، فلقد عرفته فوراً وكيف لي أن لا أعرف حصاننا الجميل؟ عرفته من خلال عدوه، ومن خلال الجوربين الأبيضين على رجليه الخلفيتين، وحينئذٍ صرخت بأعلى صوتي:

- قف فإنني عرفتك! جينشينكول. وكان يبتعد إلى الأمام عن الآخرين إلا أنه عاد متجهاً نحوي وجهاً لوجه، وفتح النار من سلاحه حيث شعّ في الظلمة مع تردد لإطلاق الرصاص، وعندما هويت واقعة عن الحصان، فهمت أن هذه كانت رصاصة، وفي البداية فكرت أن الحصان قد تعثر، فوقعت.

عندما عدت إلى الوعي أحسست بألم شديد للغاية في ظهري، ومن رأسي سال الدم نحو رقبتي من الخلف، وأخذ يشكل بقعة باردة بين كتفي، وإلى جانبي كانت الفرس تطلق أنفاسها الأخيرة، وهي ترفس قليلاً بقوائمها، وهي تحاول النهوض ولكن الأنفاس الأخيرة المضطربة قد خرجت من صدرها، وهوى رأسها بشدة على الأرض، وحينئذٍ لم تعد تتحرك، كما هدأ كل شيء من حولي، وخمدت كل الحياة استلقيت على الأرض بلا حراك ولم أحاول الوقوف نهائياً، لقد أصبح الأمر بالنسبة لي لا معنى له، وحتى الحياة كلها أصبحت فارغة. فكرت كيف لي أن أقتل نفسي؟ وحبذا لو كانت بالقرب مني هوة ساحقة، لزحفت وقذفت بنفسي إلى الأسفل على رأسي فلم أعد أتصور نفسي كيف سأنظر الآن بعيني إلى البشر، نظرت إلى السماء، فشاهدت درب التبانة، أما درب التبانة الحزين الكئيب، فقد كان يذكرني بالدموع الضبابية التي كانت تسيل على وجه عائشة، حاولت النهوض قليلاً بالاستناد على ركبتي، ثم على رجلي، ترنحت في مكاني وهويت، وأخذت أبكي من المصيبة ومن الحزن، وأخذت أصرخ داعية لهم بالشر:

يا لك يا جينشينكول! عسى أن تلعنك كل قطرة دم في هذه الحرب! ولتلعنك أرواح الشهداء يا جينشينكول! وليرجمك الأطفال بحصاهم أيها الشيطان الملعون - جينشينكول!

بكيت، وصرخت، حتى فقدت آخر قواي.

بقيت مضطجعة على الأرض، وفجأة سمعت صوت وقع خطا تقترب وتنادي، وثمة صوت شاب يناديني:

- يا خالتي تولغوناي! أين أنت؟ أجيبني، يا خالتي تولغوناي!

من خلال صوته عرفت أنه بيكتاش، وأجبت، فهرع بيكتاش وهو يلهث. وقع أمامي جاثياً على ركبتيه، ورفع رأسي عن الأرض.

- ماذا أصابك يا خالتي تولغوناي! أنتِ مصابة برصاصة؟

- كلا، لا تخف يا بيكتاش، لقد جرحت. - حاولت التهدئة من روعه، أما الفرس فقد قتلتها رصاصة.

- هذا ليس مخيفاً ومرعباً. الآن سنساعدك! - فرح بيكتاش، وأضاف: أما لحم الفرس [1]، فلم يضع سدىً، سنوزعه على البيوت.

نقلني الشباب على عربة إلى المنزل، بقيت نائمة ثلاثة أيام في الفراش أعاني من آلام في الظهر لم تسمح لي بالحركة. والآن مازلت أشعر بالألم في ظهري، حسب البرد والطقس. وخلال هذه الأيام الثلاثة قدم لزيارتي كثير من سكان القرية، ليطمئنوا على صحتي، فشكراً للناس على هذا، وخاصة على موقفهم، إذ لم يحاول أحد منهم أن يدينني أو ينتقدني، وكأن شيئاً لم يحدث. ربما كان يعرف الناس جيداً أن الأمور بالنسبة لي هي أصعب مما هي بالنسبة لهم. وكما أذكر أن كل أعمالنا قد ذهبت سدىً، والأرض المحروثة باتت بلا زرع، والقمح الذي انتزعناه من الأولاد الجائعين، أصبح صيداً في أيدي المجرمين اللئام، - هذه المأساة كانت تحرق روحي كما يحرق البارود في العيون.

10

- نعم يا تولغوناي لست أنتِ وحدك، بل أنا أختك الأرض شعرت بهذا الألم أيضاً. إن تلك البقعة كانت تؤلمني طيلة الصيف كجرح

[1] في آسيا الوسطى وخاصة في أوزبكستان وكازاخستان وقرغيزستان وغيرها من دول آسيا الوسطى يأكلون لحم الخيول حتى الوقت الحاضر - المترجم.

ملتهب، فلم يهدأ الألم مطلقاً، وهذه الآلام هي ناجمة عن الجروح العميقة المتسببة عن بقاء بعض المساحات آنذاك خالية من القمح، يا تولفوناي، وكم من الأراضي بقيت غير منتجة بسبب الحرب! وأكبر عدو لدود لي هو ذاك الذي بدأ الحرب.

- أنتِ على حق أيتها الأرض - الأم. أليس عن هذا كتب ابني ماصلبيك؟ وهل تذكرين أيتها الأرض رسالة ماصلبيك؟

- أذكر، يا تولفوناي.

- نعم، أنا وأنتِ نذكر جيداً، واليوم - يوم الغفران، أيّتها الأرض الأم. اليوم نتذكر كل شيء من جديد.

- نتذكر يا تولفوناي، فإن ماصلبيك لم يكن ابنك وحدك بل كان ابناً لي أنا - ابن الأرض، أعيدي لي قراءة رسالته يا تولفوناي.

11

عندما قدم الناس للاطمئنان عن صحتي، كنت أفكر أنهم من باب الشفقة على وضعي اجتهدوا أن يصمتوا، ولا يتناولوا ما حدث بالمناقشة. ولهذا، كانوا يتكلمون، كانوا يتناولون مواضيع متنوعة عن الأخبار والعمل والطقس، ويبدو أن هنالك كان سبب آخر لقد عرفت هذا فيما بعد فهم كانوا يعرفون، ماذا ينتظرني.

في يوم من أيام مرضي، قدمت عائشة إلينا، وهي تحمل فنجاناً من القشطة، وعندما دخلت عتبة البيت، خجلت منها جداً، لم أجهز نفسي لأعرف ماذا أقول لها، فسكت جالسة في فراشي، أما هي فقالت لي:

- لا تفكري يا تولفوناي بما كان من حديث بيننا، وأرجوك أن تسامحيني لضعفي، وأنا غير غاضبة منك فأنا جاهزة أن أقدم روحي

لك فداء لو تطلب الأمر، ولن أبخل بذلك. أما بيكتاش ابني فهو مساعد لنا جميعاً في الدارين، فهو يحبك يا تولغوناي أكثر مما يحبني، وأنا سعيدة لهذا، وهذا يجعلني أفرح أنه ينمو ويتطور ليكون إنساناً فهيماً.

فقلت لها بهدوء:

- شكراً لك على هذه الكلمات يا عائشة.

في صباح اليوم التالي تحسن وضعي نسبياً، فخرجت إلى ساحة الدار حتى أتفحص بعض الشؤون في المنزل، ولكنني تعبت بسرعة، وجلست بالقرب من النافذة حتى أتنعم بأشعة الشمس قليلاً. أما عليمان كانت في البيت تغسل الثياب الداخلية في ساحة المنزل، وأنا كنت أطلب منها أن تذهب للعمل، فأجابتني بأن مدير الكولخوز طلب منها أن تبقى يوماً في البيت، حتى لا أبقى وحيدة في المنزل.

في ذلك الربيع أزهرت التفاحة الكبيرة - كان قد زرعها سوفانكول - بشكل غزير وأحسن من كل السنين العابرة، وكأنها استعادت شبابها من جديد، وانطلقت مبشرة بالخير، وعندما تزهر الحدائق يصبح الهواء منعشاً ونقياً، وكل شيء يصبح نحو الأفضل. فيما بعد جلست أتنعم بكل ما حولي، وفي هذا الوقت جاء ساعي البريد، وقد أصبح تيميوشال كهلاً مسناً، وسلّم: مرحباً، يا تولغوناي، كيف تعيشين؟ كان يتكلم على عجل، وكان ضد المجاملات الجامدة، ويكره الكلام الزائد، زد على ذلك أنه كان مريضاً ويسعل خاصة في الليالي، إذ أنه قد تعرض لنزلة صدرية في الأسبوع الماضي، ويتعذب في العمل كثيراً، وقبل أن يغادر، قال:

- يبدو، أنه لكم رسالة حسب اعتقادي. - ثم أخرج تلك الرسالة من حقيبته.

لقد استغربت هذه الطريقة لساعي البريد من اللامبالاة، وكأن الأمر لا يهمه، وقلت له:

- لماذا لم تقل لنا مباشرة أنه لنا رسالة؟ وممن؟

- كما يبدو أنها من ماصلبيك - قال ساعي البريد بهدوء.

في بداية الأمر، ومن شعوري بالسعادة لم أعر انتباهاً أن الرسالة هذه ليست كالسابق، على شكل مثلث، بل كانت في غلاف كرتوني أبيض ومع أحرف طباعية، ساعتئذٍ قدم المحارب بيكتورسون يستند على عكازيه، وهو جار لنا، ولقد شاهدت أن رجله المصابة قد أصبحت أسوأ من قبل، إذ أنه كان يسير بصعوبة، وهو غالباً ما يأتي إلينا حتى يجلس ويتحدث. ألقى بيكتورسون التحية، ثم أخذ الرسالة وتأكد أنها حقاً من ماصلبيك.

- ما بك ترتجف؟ وأضفت قائلة: لا تقف مستنداً على عكازيك، اجلس واقرأ لنا الرسالة.

جلس بصعوبة على اللبادة، فرجله لا تطوي وتؤلمه عندما يحاول طويها، فتح الرسالة بأصابع مرتجفة، وأخذ يقرأ، إيه، يا بني، لقد فهمت من الكلمات الأولى كل شيء.

كتب ماصلبيك: "تفهمين يا أمي، سيمضي بعض الوقت وتعرفين جيداً أن ما فعلته كان صحيحاً، وأنت ستقولين، وبشكل أكيد أن ابنك قد تصرف بضمير صحيح ونقي، مع العلم، أنك تعرفين جيداً، أنه سيبقى عندك في أعماق قلبك كلمات لم تقوليها لي: كيف كان بإمكانك يا بني أن تخرج هكذا من هذا العالم الباهي؟ لماذا أنا ولدتك، ولماذا أنشأتك؟" نعم، يا أمي، أنت أم، ولك الحق أن تسألي عن كل شيء، وبكل صراحة، ولكن لا أستطيع الإجابة عن كل الأسئلة، بل سيجيب التاريخ فيما بعد. أما الآن

فبإمكاني القول أنه لسنا نحن من طلب الحرب، ولسنا نحن من بدأها، هذه مصيبة كبرى لكل الناس، ولنا أيضاً، وعلينا أن نهرق دماءنا وأن نقدم أرواحنا فداء للإنسانية حتى ننهي ونقضي على هذا الغول المتوحش، وإذا لم نقم بهذا، فإننا لا نستحق أن نسمى باسم الإنسان، فأنا لم أتعطش يوماً أن أصنع أمجاداً على ساحة الحرب، وقد جهزت نفسي لأبسط مهنة إنسانية - لقد أردت أن أصبح معلماً، أحب هذه المهنة، وأحب أن أمسك بيدي الحوار والمؤشر، ولكن كان قدري أن أمسك السلاح، وأصبح محارباً، ولست أنا الذي أخطأت في هذا، فالزمن قد فرض ظروفه علينا جميعاً، ولم أتمكن من أن ألقي درساً واحداً للتلاميذ.

بعد ساعة سأذهب لتنفيذ مهمة الوطن، ومن الصعب أن أعود حياً من هذه المهمة. أنا ذاهب إلى نقطة خطرة حتى أوفر الظروف لرفاقي كي يعبروا، وأن أحافظ على حياة الكثيرين منهم. إنني ذاهب من أجل الشعب، ومن أجل النصر، ومن أجل كل شيء رائع في عالم الإنسان.

هذه يا أمي رسالتي الأخيرة، وهذه هي كلماتي الأخيرة لأمي! وإنني سأكرر ألف مرة اسم يا أمي، ورغم كل ذلك، فأنا أبقى مديناً أمامك يا أمي، ولك دين عليَّ لم أعيده لك، سامحيني، لأنني سببت لك مصيبة تؤلمك جداً، ولكن عليك أن تدركي يا أمي أن هذه التضحية ليست بدون أسس منطقية، إنها تضحية صحيحة، فهكذا قد علمتني الحياة أن أحيا، وهذا هو درسي الأول والأخير للأطفال الذين كان عليَّ أن أعلمهم. إنني ذاهب يا أمي وبحرية كاملة وبقناعة أكيدة، وأنا فخور بأن أنفذ واجبي المقدس أمام الشعب.

فلا تبكي يا أمي! واطلبي من الجميع أن لا يبكوا، ففي مثل هذه الحالات لا يجوز لأحد أن يبكي.

سامحيني يا أمي، وداعاً.

وداعاً، يا جبال بلادي آلاتو، كم أحببتكم في حياتي!

ابنك - العلم - الملازم ماصلبيك سوفانكولوف

الجبهة في 9 آذار 1943 الساعة 12 ليلاً

رفعت رأسي، كما لو كنت في الحلم، ووقف الناس الذين حضروا لزيارتي، أو عرفوا بفحوى الرسالة صامتين بدون أن ينبسوا بكلمة واحدة، ولم يبك أحد في ساحة البيت، فهكذا طلب ماصلبيك في وصيته أن لا يبكي أحد، وهنا اقتربت النسوة وأخذنني من يدي وهن يساعدنني بالوقوف، عندها عصف ريح، وهزّت أغصان التفاحة، وسمعت كيف همست الأزهار البيضاء الكثيفة، وسقط قسم منها بلا ضجيج فوق رؤوسنا، وهكذا، ومن أجل شجرة التفاح في ساحة بيتنا، ومن أجل الذرا العالية لجبالنا البعيدة، كانت تعد السماء الصافية بالكثير من الخيرات، وفي روحي ارتفع ضجيج لا نهاية له: أردت أن أصرخ فعلاً إلى كل العالم، وإلى كل السماء، ولكني التزمت الصمت، ونفذت ما طلب ابني في وصيته بأن لا أبكي، ولا أعلم ماذا فعلت عليمان، رأيتها وقد سارت نحوي بهدوء، وهي تمد يديها إلى الأمام. لقد اقتربت مني حتى التصقت بي، ونظرت إلى عيني، استدارت ثم خرجت وهي تغطي وجهها بكفيها.

وهكذا فقدت ابني الأوسط وبقيت قبعته العسكرية معلقة على الجدار تلمن النازية.

12

- لقد بقي لي اسمه، يا تولغوناي، فأنا وطنه، وكلماته بقيت خالدة للشعب يا تولغوناي، إنهم أخوته وأبناء وطنه.

- نعم، أيتها الأرض الأم، هكذا كان كل شيء، والكولخوز الذي نعيش فيه يسمى الآن باسمه. أمّا رسالة ماصلبيك الأخيرة فقد أرسلها رفاقه في الجبهة إلى مجلس الريف، ومع رسالته أرسلوا كتاباً آخر جاء فيه أنهم لن ينسوا تضحيات رفيقهم، وسيفتخرون بها، وأن الوطن سيخلد ذكره وبطولته، كما كتبوا أن ماصلبيك قبل الهجوم الكبير لقواتنا قام بتفجير مستودع ضخم لأسلحة العدو، وكانت قوة الانفجار ضخمة حتى دمرت كل شيء حي حول المكان. فأنا أحني رأسي احتراماً للأبطال، وأمام ابني ماصلبيك الذي أفتخر ببطولته وتضحيته بنفسه، ولكن أقول لك أيتها الأرض الأم، ليس من أي مجد أن يعوض لي عنه حياً، وليسألوا أياً كانت من الأمهات فلن يجدوا الإجابة، فليس من أم تحلم بهذا المجد. فالأمهات يلدن الأطفال من أجل الحياة، والعيش معهم بسعادة بسيطة على الأرض...

- أنتِ على حق يا تولغوناي، فأنا أذكر جيداً ذلك الربيع عندما تحقق النصر على الفاشية. إنني أذكر دائماً ذلك اليوم عندما قمتم أنتم البشر باستقبال الجنود العائدين من الجبهة، ولكني حتى الوقت الحاضر لا يمكنني أن أجزم يا تولغوناي، ماذا كان هناك أكثر - سعادة أم مصيبة.

13

في ذلك اليوم كان دورنا في حرث الحقل البيئية بمحراث من الكولخوز. لقد أنهينا الحراثة، وفجأة سمعنا صخباً وضجة من جهة

الشارع، وناس يركضون وهم يتحدثون بأصوات عالية. هرعت عليمان راكضة لتعرف ما في الأمر، وعادت على الفور، وهي تقول:

- أسرعي يا ماما، جهزي نفسك، فالشعب ذاهب لاستقبال الجنود والشهداء القادمون من الجبهة.

بقيت الثيران تحت النير والمحراث خلفها في المكان، وحقاً إن القرية بأكلمها الخيالة، المشاة، الكهلة، الثكالى، والعجائز المرضى، الأولاد المصابين يسيرون بصعوبة وهم يستندون على العكازات، كان الجميع يسير باتجاه واحد، وخلال المشي السريع كان أحدهم يخبر الآخر حتى عرف الجميع أن شخصاً جاء القرية (من قرى خلف النهر)، وقال لشخص ما في القرية، أن الجنود سيعودون اليوم إلى بيوتهم، وأن قطارين قد وصلا إلى محطة القطارات، وهناك جنود من مختلف القرى وهم في طريقهم وبين ساعة وأخرى سيصلون، لم يسأل أحد، هل هذه الأخبار حقيقية، فالناس كانوا يرغبون بهذه الأخبار، وعسى أن تكون حقيقية، وحلم الناس بحلول هذا اليوم، ولذلك لم يكن لدى أحد كان أية شكوك.

سرنا مسرعين إلى بداية القرية، إلى هناك حيث تم تعبيد الطريق قبل الحرب، الخيالة لم يترجلوا عن سروج خيولهم، أما مجموعتنا فقد صعدت إلى التل القريب من القناة، بينما صعد الأولاد على الجدران المتبقية من الخراب، وتسلق البعض على جذوع الأشجار، وأخذ الجميع ينتظر، وهم يرقبون الطريق. أخذ الناس يتحدثون فيما بينهم، فروى البعض بعض الأحلام السعيدة التي شاهدوها في نومهم في الليالي السابقة لهذا اليوم، وجمع البعض بعض الحصى، وأخذوا يبصرون عليها، وفي كل هذا - في الأحلام، في التبصير، وغيرها من المشاعر المسبقة المتميزة، وكان الناس يرون النواحي الايجابية

والجيدة، التي كانوا يتمنونها. أتذكر كل هذا الآن، وأفكر لو كان الناس في كل العالم، كانوا هكذا دائماً، ينتظرون وهم متحدون بشعور واحد وأن يحبوا أولادهم وأخوتهم والآباء والأزواج، كما كنا ننتظرهم وأحببناهم لما كانت على الأرض، حسب اعتقادي، أية حروب مدمرة.

عندما هدأت الأحاديث بين الناس، أخذ كل شخص يفكر بأموره الخاصة، وهو يحني رأسه، فالناس كانوا ينتظرون حلاً لمصائرهم، وكل كان يسأل نفسه: مَنْ سيعود ومن لا؟ ومن سيتقبل قريبه ومن لا؟ وبهذا كان يرتبط تقرير المصير في هذه الحياة.

وهكذا وفي هذه اللحظة صرخ ولد على شكل مفاجئ، إذ قال من فوق الشجرة: - ها هم قادمون، فجمد الجميع في أمكنتهم، وأخذوا ينظرون، وكل منهم يمد قامته أو يرتفع فوق حجر، ثم صاح الجميع: "قادمون! "وعادوا إلى الصمت من جديد، وتابعوا انتظارهم، وعمَّ الهدوء، هدوء كلي، وبعد ردهة من الزمن، وكأنهم أفاقوا من غفلة، عادوا للضجة "أين؟ أبوهم؟ أين؟" وعادوا إلى الصمت من جديد. هناك في المقدمة بالقرب من القناة الكبيرة ظهرت عربة كانت تسير بسرعة عبر الطريق توقفت قليلاً عند تقاطع الطرق حيث يأتي الطريق إلى قريتنا، وطريق آخر يذهب إلى القرية المجاورة، ونزل عن العربة عسكري ثم أخذ معطفه الحربي وكيساً فيه أغراض ودّع سائق العربة وأخذ يسير بخطاً عريضة نحونا. لم ينبس أحد من بين الحضور ببنت شفة. التزم الجميع الصمت، وهم ينظرون إلى الطريق الذي سار عليه هذا المحارب باستغراب - حبذا - يحمل معطفه وكيس أغراض على كتفه، اقترب أكثر نحونا، ولكن لم يتحرك أحد من الناس الموجودين من مكانه، وبدت على أوجه الناس علامات استفهام وحيرة

قاتلة كنا جميعاً ننتظر أن تحصل المعجزة، ولم نثق بأعيننا لأننا كنا ننتظر ليس شاباً واحداً بل الكثيرين من الشباب الذين غادروا إلى الحرب.

اقترب العسكري، أكثر وأكثر ثم توقف في حيرة من أمره، وقد ذهل عندما رأى هذا الكم من البشر في مقدمة القرية، وجميعهم صامت وبلا حراك. ربما فكر هذا المحارب: من هؤلاء البشر؟ لماذا هم صامتون؟ ولماذا يقفون جامدين هكذا وكأنهم مقيدون؟ ربما إنهم ينتظرون أحداً ما؟ نظر المحارب خلفه إلى الطريق مرتين علّه يرى أحداً ما، ولكنه لم يكن غيره هناك، ولا أي إنسان كان من كان، وعاد للسير مجدداً نحونا وعاد للتوقف ثانية ونظر إلى الخلف على طول الطريق. وهنا صرخت الطفلة التي كانت تقف أمامنا حافية القدمين وانطلق صوتها مجلجلاً:

- هذا أخي! آشير علي! - خلعت المنديل عن رأسها، وانطلقت راكضة إليه، بكل ما أوتيت من قوة.

الله وحده يعرف، كيف عرفت هذه الطفلة هذا الشاب من بعيد بأنه أخوها أما صوتها الذي صدر كرصاصة حادة، بعث الحركة بين الناس، فانطلق الأولاد والبنات راكضين خلفها.

- نعم، من حيث شكله، إنه آشير علي! هذا هو! - ارتفعت الأصوات، وهرع الناس، الكهلة والشباب، كلنا تقدمنا نحو هذا الشاب المحارب.

وهنا، يعمّ الاستغراب، يا لها من قوة هائلة عصفت في نفوسنا جميعاً، وحملتنا على أجنحة جبارة عندما هرعنا راكضين نحو المحارب! وكل منا يفتح ذراعيه لعناقه، فإننا كنا نحمل معنا كل حياتنا الماضية مع كل المعاناة، كنا نحمل عذابنا، وطول صبرنا

وانتظارنا والليالي العجاف بلا نوم والشعر الشائب فوق رؤوسنا، والصبايا اللواتي كبرن، وتجعدت وجوههن، والأرامل اللواتي فقدن أزواجهن على الجبهة، والأيتام. كنا نحمل معنا الدموع والآهات، كنا نحمل الإباء والرجولة والشموخ للمحارب المنتصر، الذي أدرك فجأة أن هؤلاء البشر يستقبلونه، فأخذ يركض نحونا ليعانق كلاً منا.

عندما ركضنا جميعنا بدا لي وكأنني أركض إلى جانب عربات القطار المغادر مع كل الضجيج والصخب، والريح تعصف في وجهي، وأسمع صراخ: "ماما - آ - آ! عليمان - آن - آن" وفي أذني تقرقع وتقرقع أصوات عجلات القطار المسرع.

وصل الخيالة في المقدمة، وأخذوا من يده المعطف وكيس الأغراض، وأحاط به الشباب وهم يمسكون به من مرفقيه من كلا الجانبين والآخرون يصافحونه بحرارة.

آه، أيها النصر! كم طال الوقت حتى تحققت. مرحباً أيها النصر! مرحباً! سامحنا أيها النصر لهذه الدموع! وسامح كنتي عليمان لأنها أخذت تضرب رأسها بصدر المحارب آشير علي وتسأله، وهي تبكي وتصرخ، وتهزه من كتفيه: "أين؟ أين زوجي قاسم؟"، سامحنا، أيها النصر، كم من الضحايا قدمنا من أجلك! سامحنا على صراخنا هذا! "أين رفاقك الآخرون؟ أين ابني؟ أين زوجي؟ وأين الآخرون؟ متى سيعود الجميع؟" نرجوك أيها النصر أن تسامح المحارب آشير علي، وهو يجيبنا مطمئناً "سيعود جميع رفاقي قريباً" سامحنا أيها النصر، سامحنا. وعندما جاء دوري لأقبل وأعانق آشير علي، فكرت في تلك اللحظة في جاينك وفي ماصلبيك وفي قاسم وفي زوجي سوفانكول: فلم يعد أحد منهم، سامحني، أيها النصر...

سرنا جميعاً صامتين. أما عليمان فكانت بين الحين والآخر تدمدم باكية، والفصة تملأ حنجرتها، ويخرج بكاؤها جافاً مع حشرجة قاتلة، وكأنها تختنق لقلة الهواء. أما وجهها فقد كان شاحباً مخيفاً وكئيباً، وهي تنظر إلى الأرض مطأطئة الرأس ناظرة إلى أمام قدميها، وهي تفكر بشيء ما يعذب روحها. لقد عرفت: الأفكار القاتلة والقاسية التي عانت منها عليمان، كانت تأخذها بعيداً، وكادت تحطمها كلياً، وعانت معاناة طويلة ومريرة، ولقد شاهدت هذا على وجهها ومن خلال نظراتها الحزينة، وكيف كانت تصبر وتصبر، وهي تمض على شفتيها حتى تدميها. كنت أعلم بماذا تفكر، وكنت أناجيها في نفسي: "ما رأيك يا كنتي الحبيبة، يبدو من الأفضل لنا أن نفترق، فأنت، الآن قد فقدت الأمل الأخير في عودة قاسم، والآن تأكدت من موته ودفنه. فما العمل يا عزيزتي؟ فعلى الأحياء أن لا يموتوا لموت الأعزاء الراحلين، وإلا لانتهت البشرية، ولا يجوز لك أن تتعذبي طويلاً كأرملة، فكل شيء قد انتهى، فأنت ستذهبين، وهذا قدر علينا أن نتحمله - ستذهبين بالطبع، وأنا لن أكون غاضبة من هذا. فأنت ستغادرين ليس بإرادتك، وليس لسبب ما، فالمصير اقتضى هذا، آه، أيها المصير، المصير... لو عرفت يا عليمان كيف من الصعب عليَّ أن أفارقك! لقد عشت معك كأم مع ابنتها، وعندما ستقررين المغادرة سوف أصلي وأصلي من أجلك كابنة غالية، وأتمنى لك السعادة، فأنت مؤهلة أن تعيشي حياتك، فأنت مازلت شابة وجميلة، وستجدين إنساناً يلائم طبعك، والمهم بالأمر أن يكون إنساناً جيداً، وهل بإمكانه أن يكون لك كما كان قاسم؟ فمن يعرف؟ واعلمي أنه كما ترين ليس بمقدوري أن أساعدك في شيء، وأطلب منك شيئاً وحيداً عندما تغادرين أرجوك أن لا تنسيني

وتذكريني ولو نادراً، فلم يعد أحد عندي عداك أنت، من دونك سأبقى في هذا البيت وحيدة، وحيدة في كل الدنيا، حتى التفكير بهذا يعذبني، ويخيفني ولا شيء يهدئ من روعي ومصيبتي في سنوات كبري فلم يساعدك الوقت حتى تلدي لي حفيداً وربما هذا بالنسبة لك أفضل وأنت لا تضعي نفسك مكاني، ولا تفكري بخصوصي. عليك أن تعيشي حياتك ولا تحاولي أن تتشائمي أو تكتئبي، فتقضي على شبابك، وهذا لا يجوز وضد إرادة القدر. فأنا عشت أغلب عمري وأصبحت مسنة، وعليك أن تعيشي حياتك، وعندما ترغبين بالمغادرة صارحيني، وأنت حرة أن تغادري في أي يوم. وستغادرين بضمير مرتاح، وسأتذكرك وأحبك دائماً، وأشكرك على كل شيء...".

هكذا سرت وفكرت كيف لي أن أنقل لها كل ما في داخلي، وعليمان كما تبيّن لي أنها كانت تعرف ما يدور في خاطري، فعندما يعيش الناس مقربين من أرواح بعضهم يتفهمون ما يدور في عوالمهم بلا كلام، ولكنها قالت لي ذات يوم كلاماً، لم أكن أنتظره منها.

سرت بالقرب من الشارع المهجور، ونظرت في عمق مأساتي إلى قطعة الأرض، والمواد عليها، حيث كان قاسم وعليمان سيبنيان بيتهما عليها، كل شيء على هذه الأرض كما كان قبل خمس سنوات. فكانت كومة الحجارة المنقولة من بعيد، وكذلك الطوب الذي تكسر وتهشم، فمنذ تلك اللحظة التي بدأت فيها الحرب بقي كل شيء على حاله، وأهمل هذا الشارع كلياً. وفي كل صيف كانت تنمو الحشائش الغريبة، والجدران قد هبطت في الأرض، وحتى داخل البيوت قد نمت الأشواك، وتطاولت حتى أصبحت تظهر من النوافذ الفارغة. وأخذت تسرح هنا العجول التي يعلفونها للذبح. كما

كانت تبيت هنا طيور الهدهد التي توقوق بأصوات حزينة الليالي، وتحب هذه الطيور القنبرية المقابر الخالية، وكانت في تلك الساعة تحوم هناك فوق الخرائب كما لو كانت في مقابر متنعمة بالدفء الخفيف في الربيع، وأخذت تغرد بصوت حزين.

قلت في هذا الفراغ القاتل: - "آه يا إلهي! أين كان الناس الذين أرادوا أن يعيشوا على هذه الأرض، وأن ينعموا بدفء هذه البيوت، ويروا الدخان ينفث من مداخن بيوتهم؟ وابني العزيز قاسم لم يسعفه الحظ أن يبني هنا بيته الأول!" خيّم الحزن على روحي، وحاصرني الاكتئاب في زاوية قاتلة حتى كدت أختنق. وعليمان التي كانت تمسك بيدي ابتسمت متأسفة، وقالت لي:

- ماذا حلّ بك، يا ماما، لماذا تتألمين وتحزنين هكذا؟ أو أنك فقدت الثقة بهذه الحياة؟ أفهم يا أمي أن كل شيء أصبح لا يطاق، ولكن أعرف أنك قوية فأنت... لقد أرادت أن تقول شيئاً ما ولكن شعرت بخطئها فتوقفت وابتسمت متأسفة... أنت إنسانة جيدة بكل بساطة. تعالي نجلس هنا فوق هذه التلة ونتحدث يا ماما.

"الآن، الآن ستقول لي، ستقول، بأنها ستغادرني" - فكرت في قرارة نفسي، وشعرت بموجة حمى ساخنة مع شيء من الشفقة قد غمرت جسمي بخصوصنا نحن الاثنتين، وأجبتها محاولة نزع الارتجاف القلق في صوتي.

- حسناً لنجلس، ونتحدث.

جلسنا على حدبة صغيرة، على حافة الطريق. نعم، جلسنا نحن الاثنتان، حماة وكنتها، فقدنا زوجينا كما فقدت أولادي حتى نقرر مصيرنا، وكيف لنا أن نعمل فيما بعد؟

أطرقت عليمان رأسها، ثم تنهدت بصعوبة، وقالت:

- هكذا، يا ماما، انتهت الحرب الملعونة، وأنت ربما تفكرين الآن كيف سنعيش بقية حياتنا، صمتت قليلاً، وأنا كنت ساكتة، ثم رفعت عليمان عينيها، ونظرت نحوي بجدية، وحدقت في وجهي: فلا تحزني يا ماما، وابتسمت ابتسامة حزينة، فأنت تفكرين أنه لم يبق لنا من السعادة في الحياة أي شيء، ولو شيء بسيط وقليل نفرح قلبينا. فكانت الضربة قاتلة وقاضية من الأربعة رجال، لم يعد إلينا ولا واحد. كلا، توقفي يا ماما، لا تقاطعيني، واسمعيني قليلاً إنني أقول لك بكل الصدق والإخلاص. فلست أنا التي ستتصحك، ولست مستعدة أن أقول لك شيئاً زائفاً، فصدقيني يا ماما إن قلبي يقول لي هكذا: جاينا سوف يعود لنا حقاً، أنه فقد ولم نعلم عنه شيئاً هذا يعني أنه مازال حياً، وخاصة أن أحداً لم يره قد استشهد. وربما وقع في الأسر، أو اختفى مع الأنصار في الغابات، والآن عسى أن يظهر بعد انتهاء الحرب. وربما يتعالج بعد إصابة صعبة في مستشفى، ولا يريد أن نقلق عليه، أو من غير الممكن له أن يعلمنا من باب السرية. كل شيء ممكن، وسترين قريباً سيعود وسيحل كالثلج فوق رأسينا. فلننظر يا ماما. لا نريد أن ندفنه قبل الآوان. لقد كانت كثير من الحالات - أنت تعرفين، وسمعت بذلك لقد عاد جنود أحياءً لم يكونوا مجهولي المصير بل أولئك الذين جاءت برقيات نعوة سوداء بأسمائهم. ففي القرية المجاورة، وأيضاً عند الكازاخ، فوق الهضبة الصفراء، كانوا قد بكوا جندياً لهم وأقاموا حفلة تأبين لأسبوع، وبان أخيراً أن الأموات كانوا أحياء يرزقون وعادوا سالمين. وأنا أثق وأعرف جيداً، أن جاينا العزيز علينا مازال حياً، وسيعود قريباً. فمن غير الممكن أن لا يعود إلينا ولا واحد من الرجال الأربعة. فلننتظر يا ماما، فلننتظر. لقد انتظرنا طويلاً وبقي القليل. وبخصوصي لا تقلقي فإذا كنت في السابق زوجة لابنك، فأنا الآن كابنه مكان الأولاد كلهم...

صمتت عليمان، وجلسنا معاً مدة طويلة صامتتين، كان الوقت في منتصف شهر أيار، وهناك في الميعاد البعيد عنا كانت تتلبد بعض الغيوم، ثم أخذت تتشبع بلون أسود، وكأنه دخان أسود عمَّ الفضاء. وساعتئذٍ قصف الرعد، ومن جهة ما جاءت رياح باردة مع نسيم يحمل رائحة الأمطار الحاملة لعطر غبار الأراضي التي تم حصادها، وفي ذلك الصوب الضاوي نزلت الأمطار الصافية تحت وقع ضوء خفي، كان يصب نوره من خلف الغيوم وهكذا، كان يتساقط المطر غزيراً، وتلمع صفحاته تحت نور الشمس، وكان ينتقل من منطقة لأخرى، بخطوات عريضة وواسعة عبر الأراضي الفسيحة: أحياناً كان يذهب إلى الجبال البعيدة، وأحياناً ينزل إلى السهول، ومن جديد يعود إلى الجبال وينحرف نحو السهول، كنت أتابع تحركات وتنقلات الرعود دون أن أبعد نظري عن مساره. ولقد لفحت الرياح الرعدية الباردة القادمة من بعيد وجهي الساخن. وأنا لم أقل شيئاً لعليمان فكلماتي بالنسبة لها كانت كلمات كريمة ووضاءة، مثلها مثل هذه الأمطار البعيدة الصافية.

نعم، دع الأمطار تنهمر، ولتنمو المزروعات، والقمح خاصة. سيعيش الشعب، وأنا أيضاً سأعيش مع الشعب. فهكذا كنت أفكر ليس لأن عليمان قد واستني وخففت من آلامي، إذ قالت، أنها لن تتركني وحيدة، كلا، لقد سررت لشيء آخر مهم للغاية إذ لا يَصدُق الناس الذين يقولون: إن الحرب تجعل الناس أكثر قسوة ووحشية وبخلاً وسفالة وفراغاً، فهل هذا صحيح؟ كلا، ولو حاربت أربعين عاماً، وقتلت الناس ودستهم بالجزمة ونهبتهم وحرقتهم وهدمتهم، فليس بإمكانك أن تقضي على الإنسانية في الإنسان، أو أن تخضعه وتجعله يبتعد عن إنسانيته.

أما عليمان العزيزة على قلبي، فهي إنسانة عظيمة، فمن أجل مَنْ كانت تدعم القناعة في نفسها بأن جاينا العزيز الذي قفز بالمظلة في ليلة داكنة الظلام بين صفوف العدو، وفقد بلا أثر بعد تلك الليلة أنه مازال حياً، وأنه سيعود قريباً؟ ومن أجل مَنْ حاولت أن تقنع نفسها بهذا، وأن العالم ليس ظالماً كلياً، كما يبدو للبعض؟ وأنا، لم أتجرأ أن أشكك بما قالته، وأن أخفف من إيمانها، وأملها الإيجابي، وحتى صدقت مشاعرها. ماذا لو كان جاينا حياً فعلاً؟ هذا يعني أنه لم يحدث العجب، إذا عاد في يوم جميل من الأيام القادمة. لقد صدقت كالطفلة الصغيرة، فقد كنت أشتهي هذا وأتمناه، وكنت أحلم بهذا اليوم الذي كسرت فيه عليمان هذا الصمت القاتل وأفصحت عما في نفسها. وهي التي تذكرت قبلي أنه من الضروري حرث الحقل الذي بقي بلا حراثة، إذ قالت بإلحاح:

- يا ماما، إن الحقل في بيتنا بقي بلا حراثة فالمحراث موجود لدينا. دعينا نحرث الحقل قبل أن تجف الأرض.

أسرعنا إلى الحقل، وأخذنا معنا المحراث، وكان الثوران يرعيان الحشائش خلف الحقل. قامت عليمان بسوقهما إلى الحقل، وجهزنا المحراث بالصورة اللازمة، والمقود، وبدأنا بالحراثة. كم هو غريب طبع الإنسان فأحياناً تلزمه كلمة جميلة خيرة حتى تبعثه من عالم التشاؤم والبؤس إلى عالم التفاؤل. وهذا ما حصل مع عليمان أو هكذا قد بدا لي! وفجأة تحولت عليمان إلى ما كانت عليه قبل الحرب. كل شيء فيها أصبح يشع، في كل كلمة تلفظها، وفي كل ابتسامة تبدو على شفتيها وفي كل حركة - كل شيء فيها عاد إلى ما كان عليه قبل الحرب. قذفت بمعطفها القصير على الحد، ورفعت فستانها ووضعت طرفه تحت حزامها، وأنزلت منديلها على رقبتها

وأخذت تسوق الثورين بجدارة. وبين الحين والآخر كانت تصرخ بهما وهي تلسعهما بحبل قطن طويل وتقول:

- إي! تحرك يا أبيض الرأس! توب! توب! إي! تحرك يا أبتر الذنب! تحرك بسرعة أكبر!.. وهكذا أخذت تحاكي الثورين باللغة التي يعرفونها، وتعجّل من حركتهما.

أرادت عليمان، أن أتنشط قليلاً، حتى أعود للعمل، وأعيش حياتي، ولهذا كانت تتصرف هكذا في ذلك اليوم الذي لا ينسى، كانت تلف المحراث، وتدير الثورين بسرعة فائقة، بلا توقف، وتقول لي مبتسمة:

- اصبري، يا ماما، لا تضغطي كثيراً على الكابوسة - فالأحجار تخرج إلى وجه الأرض، اقتصدي وحافظي على قواك!

عندما بقي لنا ثلاثة أو أربعة أثلام لحقنا المطر، وأخذ ينزل على ظهري الثورين في بداية الأمر خفيفاً، ثم غيَّر رأيه، وأخذ ينزل بغزارة، إذ تتراقص القطرات فوق الثورين بشدة. ولم تمض عدة دقائق حتى عمَّ كل القرية، وهرعت المواشي إلى حظائرها، والدجاجات إلى قنها، ونزعت النسوة الغسيل عن الشركات في ساحات بيوتهن وركضن بسرعة إلى البيوت، وخرج الأطفال إلى الساحة كي يلعبوا تحت المطر، وكذلك الكلاب وأخذ الأولاد يلعبون السباق تحت المطر والشباب أخذوا يغنون أغنية:

أيها المطر، أيها المطر، انتظر قليلاً

أنا سأسير معك عبر الطريق ...

- تبللنا! فلنختفي حتى يخف المطر - قلت أنا لعليمان، أما هي فقد رفضت هازة برأسها:

- لا ضير يا ماما، لا تخافي، إنني لن أذوب! وأخذت تضحك كفتاة صغيرة، يدغدغها المطر، وهي تسوق الثورين بسرعة أكثر، وتضربهما بالسوط.

- أما أنا، فلقد أخذت أشاركها بفرحتها تنعمت روحي بوضعها المرح، وهمست في نفسي: "آه! يا عليمان، يا بنيتي المنيرة، أصبحت كلك مبلّلة بالماء، كم كان من الممكن أن تكوني سعيدة!... آه، أيتها الحياة، الحياة...!" الآن أصبحت أفهم أنها كانت تقوم بكل هذا من أجلي، فهي كانت ترغب جداً أن أنسى الحرب، مآسيها، وأن أنسى المصائب التي حلت بي، وحتى أنظر إلى الحياة بعينين متفائلتين.

كانت عليمان تضع إحدى يديها فوق عينيها حتى ترى طريقها، أما المطر فقد كان يسيل فوق وجهها كالمزاريب، وهي تقول لي:

انظري يا ماما، كم هو جميل هذا المطر، وكم هو نقي ونظيف، فالسنة سيكون موسمها جيداً، توب! توب! أمطر، أمطر، يا مطر، اروي الأرض بسخاء توب - توب، ثم ضربت الثورين بسوطها مع وقع المطر فوق ظهري الثورين، اللذين يصعد البخار منهما.

كانت تضحك ولم تعلم كم كانت هي جميلة تحت المطر، حيث بدت في فستانها المبلّل كلياً رشيقة ورفيعة، وبرز صدرها مكوراً فوق خصر نحيف، ووركين قويين، وعيناها تشعان من السعادة البريئة، والاحمرار الوردي على وجنيتها، فلتكوني أيتها الحرب ملعونة، ملعونة، ملعونة إلى الأبد!

عندما غادر المطر، وذهب يقطع المسافات إلى مناطق أخرى، صمتت عليمان آسفة تنظر في أعقاب المطر المغادر، وهي تصغي إلى قرقعته المبتعدة تدريجياً خلف النهر، ربما كانت تفكر أن المطر ليس أبدياً، وأنه يمر بسرعة، يلقي السلام ويغادر، تنهدت بأسى، ربما

تذكرت قاسم زوجها الشهيد أو أشياء أخرى، ولكن عندما نظرت إليّ ابتسمت من جديد.

- لقد تعودنا سابقاً، أن زرع الذرة يتم تحت المطر! قالت عليمان، وركضت إلى البيت.

حملت في سطل قليلاً من الذرة المبللة، ثم أخذت ملء يدها من حبات الذرة المنتفخة، وقالت بصوت المتوسل للإله:

- يا ماما، عسى أن يعود جاينا ك، قبل أن ينضج الحليب في أكواز الذرة! ونثرت في الحقل أول حفنة.

لم أنسَ بحياتي ذلك اليوم، وبزغت الشمس من بين الغيوم، كطفل ولد لتوه، وعمت الكون المغتسل بالمطر بنورها، أما عليمان فقد كانت تخطو في الأرض الداكنة الرطبة، حافية القدمين، وهي تبتسم وتقذف بعد كل خطوة تخطوها حفنة من الذرة. إنها كانت تزرع ليس الذرة فقط، بل كانت تزرع بذور الأمل والخير والانتظار السعيد.

- سترين يا ماما، كانت تقول لي وهي تنثر الذرة، سوف تتحقق كلماتي. تذكرين وأنا أقوم بشواء أكواز الذرة قبل أن تقسو في رماد النار الحامية، عندما تقاتلت معه من أجل أكواز الذرة؟ وفي ذلك اليوم سحب من الرماد الحامي كوز ذرة ودسه فوق بطنه، وهرب راكضاً، فأحرقه الكوز وأخرجه على جناح السرعة، وكأنه قد لدغ من أفعى، فأخذ سطل مياه وقذف به على صدره. أما أنا فلم أستغل وضعه وحتى أساعده بشكل ما أخذت أتدحرج على الأرض وأقول له مكررة: "خليك هذا دواؤك! خليك هذا ما يلزمك!" هل تذكرين يا ماما؟ وضحكت هي بصوت عال، وهي تتذكر تلك الحادثة.

- وعلى هذا، شكراً لها...

14

- نعم، يا تولغوناي، لقد انتظرت جاءناك مدة طويلة.

- طويلاً، أيّتها الأرض - الأم. لقد مرّ موسم الذرة أكثر من مرة، مرتين أو ثلاثة، وجاءناك لم يعد، ولم يصلنا أي خبر عنه، وأنت تذكرين كم من مرة قدمت إليك، والدموع تبلل وجهي لأتقاسم معك هموم مصائبي...

- نعم يا تولغوناي، لقد كنت تأتين عدة مرات في كل موسم تبكين وتسألين كيف لك أن تتصرفي مع كنتك، وكيف العمل حتى تلتفت لنفسها، كي لا تدمر روحها بيدها في عزّ شبابها. ولكني لم أقدر على مساعدتك وتقديم النصح لك يا تولغوناي، والآن وبعد مرور العديد من السنين لا أستطيع أن أقول لك شيئاً.

15

مضت الحياة تطوي أيامها بلياليها ونهاراتها، والحياة أصبحت في الكولخوز أسهل من قبل، وأمور العمل أخذت تنتظم تباعاً، ومع مرور الزمن فترت ذكرى الحرب الأليمة. وأخذت تمحي آثارها في قلوب وأرواح البشر المعذبين.

أما أنا وعليمان، كنا نعمل في الكولخوز، وحولت عملي كرئيس للعمل إلى الشباب مباشرة بعد انتهاء الحرب، وعودة المحاربين الشباب إلى الكولخوز، إذ قلت لهم:

- لقد عملت ثلاث سنوات بدونكم، في غيابكم، وعانيت أشد المعاناة، والآن قد عدتم، فاستلموا العمل بأنفسكم، وسرحوني، لقد كبرت، أما ما تبقى لي من العمر، فإنني سأساعدكم قدر استطاعتي.

أما الشباب الذين عملوا معي آنذاك، مازالوا حتى الوقت الحاضر ينادونني بـ "الرئيسة"، هذا يعني، أنهم مازالوا يحترمونني...

وبغض النظر عن أن الحياة قد عادت تدريجياً إلى مجراها، فأنا وعليمان لم نجد لنفسنا هدوءاً ولا اطمئناناً، ولم يلاحظ أحد هذا، بينما كنا نتعذب في داخلنا بلا حدود. ودائماً كنا نفكر بشيء واحد، هو ما كان في أرواحنا، وللوهلة الأولى، يبدو الأمر أسهل من قبل، فأصبحنا نتحدث بصراحة عن كل شيء، وجهاً لوجه: هكذا، وهكذا، وعسى أن نتمكن من السير عبر الطريق الذي يناسب كلاً منا، وكل يبني حياته كما يشاء. ولكن المسألة كانت سهلة للغاية، لو كانت عندي كنة غير عليمان، بل أية امرأة غيرها، ولو لم تكن عليمان طيبة وخيرة معي للغاية. ولو كان الأمر مع امرأة أخرى، لما فكرت طويلاً، وقلت لها وجهاً لوجه: انتهى كل شيء، ولا ضرورة لبقائك هنا فابحثي لنفسك عن زوج، واذهبي وشأنك، ولكنني لم أستطع أن أقول هذا الكلام لعليمان. ومهما حاولت اختيار الكلمات، وتحسين الأسلوب الكلامي، فإن المحتوى يبقى غليظاً وفظاً في محتواه، لم أملك الحق الأخلاقي أن أطردها، رغماً عن إرادتها، وذات يوم جاء إلينا أهلها، من قرية كايندوف. وحتى يكون ضميري نقياً، أجبرت نفسي على الكلام معهم، بأن عليمان حرة، وأنا، أتمنى لها الخير والسعادة. ولكن ومجرد أن تكلموا معها، قطعت عليهم الطريق بشدة، حتى خجلت أمام الناس، وأصبح موقفي حرجاً وكذلك لموقفها، وحتى منعتهم من الكلام حول هذا الموضوع، موضحة لهم، أن لها رأساً تفكر به، أغادر بيت زوجي، أم لا. وحتى أقرر المغادرة، هذا أمر يتعلق بي شخصياً، وأرجو أن لا تتدخلوا في حياتنا. وهنا ندمت على ما قلت لها على عجل، وكنت أخفي نظري كي لا أنظر لوجهها

حياء منها. أما هي فذكية وعزيزة على قلبي، فهمت كل شيء، ولم تقل كلمة واحدة، وكأنه لم يكن شيئاً، وهكذا استمرت الحياة، فتعاطفت الواحدة مع الأخرى، ونتمنى لبعضنا الخير، ونحن ننتظر جاينا. وفيما بعد اضمحلت هذه الأحلام، ومضى وقت طويل، وأصبح الزمن متأخراً للغاية...

لا أعرف كيف حصل فيما بعد، واتخذ قرار بتحويل كولخوزنا إلى منطقة مراعي، فمنذ الأزمان البعيدة، كانوا يربون المواشي في هذه المنطقة - في الربيع يصعدون إلى الجبال، وفي الخريف - ينزلون من الجبال إلى السهول، ولهذا أصبح الرعاة بعد نزولهم من الجبل يرتاحون في القرية لعدة أيام مع مواشيهم.

وفي خريف عام ستة وأربعين جاء إلى هذه المنطقة الكثير من الرعاة مع قطعانهم، وبينهم كان شخص مع مواشيه، شاب من القرية المجاورة، كما يبدو قد أمضى الحرب، وعاد إلى قريته، كان يرتدي حتى الوقت الحاضر المعطف العسكري الطويل، رمادي اللون، ويمتطي حصاناً جيداً، يحمل سلاحاً على كتفه، يضع فروة مطوية خلفه ومثبتة فوق السرج، وغالباً ما كان يمر من القرية، ولكن لم نعر اهتمامنا لهذا، فهو يمر على الطريق العام، وما شأن أحد في هذا. وأنا لا أعرفه الآن، ولم أكن أعرفه سابقاً.

في الخريف الماضي، أقام أهل القرية حفلتي زفاف حسب التقاليد القديمة في القرية والمنطقة، وأجروا هناك سبق خطف الكبش [1] على الخيول، شارك هذا الراعي في هذا السبق، وفاز كأول فارس. وأنا وعليمان استعددنا للذهاب إلى العرس، وفي الوقت

[1] سبق "خطف الكبش" عادة قديمة عند شعوب آسيا الوسطى، حيث يذبح كبش من قبل أهل العريس، ويوضع في نقطة ما في بداية الميدان، تتزاحم الخيول والفرسان ويحاولون جاهدين لخطف الكبش، وحمله حتى نهاية الميدان، لنقطة محددة، وعند ذلك يفوز الأول - المترجم.

الذي كانت عليمان تقوم بتجهيز نفسها، سمعت قرقعة حصان يعدو بسرعة في الشارع، وتوقف على عجل، وكأن الخيّال قد وقع عنه، خرجت لأستطلع الأمر، فكان عند البوابة ذلك الراعي فوق حصانه الذي كان ينخر قليلاً، وقد تهيج من تحته، وأخذ يتراقص، أما هو فقد كان يجلس ببهاء فوق السرج، وهو يعض على عود من الخيزران. وقد عكف نهاية كمي سترته، وعند مدخل البوابة كان الكبش جثة هامدة حيث كان بإمكان المنتصر أن يأخذ هذا الكبش ويرمي به أمام أي بيت ولكنني لم أعرف ما أقول له، وحرت في أمري، وأخيراً نطقت بكلمة لفظها لساني:

- أنت، من أجل ماذا تفعل هذا، يا بني؟

أما هو فسأل:

- من في البيت؟

- ومن يلزمك أن ترى هناك؟ - قلت له مستفسرة.

عندها أجاب هامساً شيئاً ما. لقد أوقعت الكبش، فاختطفه عن الأرض، ولف رأس حصانه، وانطلق في الشارع إلى الأعلى. وهنا لحق به المطاردون، وعندما رأوه قد ذهب مع الكبش، انطلقوا خلفه مسرعين فوق خيولهم، وانتهى الأمر بعد هذه الحادثة، فلم أعد أراه مطلقاً. ولكني شعرت بالحزن وقتها، وطالما أنه جاء ورمى الكبش أمام البيت فكان عليه أن يتركه لأصحاب البيت، هكذا حسب التقاليد، وربما قد رماه عن غير قصد فعلاً؟ ولكن لماذا، لم يكن الكبش مرمياً في الشارع بل عند البوابة؟ وماذا يعني هذا؟

عندما خرجت عليمان من البيت، فهمت ساعتئذٍ كل شيء، لقد كانت ترتدي شالاً جميلاً ملوناً بالأزهار المختلفة، وفستان حرير نظرت نحوي بسرعة ثم أحنت رأسها، إذ شعرت بالخجل.

لنذهب، يا ماما - قالت هي بهدوء.

ومن دون كلام أصبح الأمر واضحاً، لماذا جاء إلى هنا هذا الراعي! وتذكرتُ، أن عليمان، ومنذ عدة أيام، تذهب في المساء لجلب الماء من النهر، مع العلم أن الماء، خلف البيت، القناة مملوءة بالماء الصافي، وتعود متأخرة. أخذ قلبي يخفق مع شيء من الألم، وليس هذا لأنني كنت أغار عليها، وربما كنت سأغار، ولكن الأمر كان في غير ذلك، وأنا التي طلبت من الإله أن لا تبقى عليمان مدة طويلة كأرملة، وعسى أن تجد لنفسها زوجاً بأسرع ما يمكن، لقد تمنيت لها هذا، وأن تكون سعيدة، ولكن الخوف الذي ألمَّ بي كان خوفاً من المجهول. لقد قلقت جداً، وكأنها ليست كنَّتي التي ستتزوج، بل ابنتي الوحيدة التي ليس لي غيرها، وخفت عليها أن تغلط في البيت الزوجي الجديد، وكيف سيكون وضعها في أسرة جديدة، وعند أي أناس ستكون وأي رجل سيكون لها؟ وخلال الطريق عندما عدنا إلى البيت لم تخرج هذه الأفكار من رأسي.

وكنت أرجوها بصمت في داخلي:

هل عرفتيه يا عليمان بشكل جيد؟ ما وراء هذا الإنسان؟ لا تستعجلي يا بنيتي عليمان، انتبهي، لا تغلطي، اعرفي الشخص بشكل جيد. هكذا كنت أرجوها، وعسى أن لا أكون عائقاً في طريق الشابين، وعليَّ أن أكون دقيقة في تعاملي معها حتى لا تخجل مني، وعليَّ أن أخبرها بحذر بأنها حرة التصرف كما ترى مناسباً وضرورياً. وأنا حاولت أن أخفي قلقي بخصوصها، وتحدثت معها كما في العادة، وحتى كنت أحدثها ببعض الطرق وأمازحها حتى لا تتحسس مني مطلقاً، وعسى الله ألاّ تفكر يوماً بأنني غير موافقة. وكما تبين لي أنها تعرف كل شيء يدور في عالمي، ولماذا أنا قلقة.

في المساء عندما أخذت عليمان السطل، وذهبت تجلب الماء، تنفست الصعداء، وكأن جبلاً نزل عن كتفي. حسناً، هذا جيد: عسى أن تلتقي به، ولكنها عادت على جناح السرعة إلى البيت، فلم تذهب إلى النهر، وجلبت الماء من القناة خلف البيت، وقالت لي وهي تضع السطل مكانه:

- يا ماما، إنني سأسخن الماء، اغسلي رأسك إذا أحببت.

- لدينا الوقت الكافي، يا بنيتي - أجبتها بهدوء، - غداً لدينا النهار بطوله، إذا لزمك أن تذهبي إلى مكان ما...

ولكنها قاطعتني، قائلة:

غداً سنذهب إلى العمل، ليس لدي وقت، فاغسلي رأسك يا ماما وأنا سأسرح لك شعرك بالمشط.

سخنت عليمان طنجرة مياه، وأخذت تعتني بي كما لو كانت تغسل طفلة صغيرة لا تستطيع أن تغسل رأسها بنفسها. أجبرتني في البداية أن أغسل شعري بحليب حامض، ثم بصابون ذي رائحة ممتازة، ثم بالماء العادي، ثم بالصابون ثانية، ولم تبتعد عني ولو لثانية أو لخطوة، وكانت تغير الماء، وتخلط الساخن مع البارد، وتغرف بالمغرفة، وتصب على رأسي وكدت في مرات أخرى أخلص نفسي منها، ولم أصبر طويلاً، وكنت أطلب منها أن تتركني على راحتي. ولكن في ذلك المساء أدركت أنني مخطئة لأنها بسببي لم تذهب إلى اللقاء، "يا لهذه المصيبة! لماذا فعلت هذا؟" حنقت على نفسي وغضبت منها، أما عليمان فكانت تبدي نفسها وكأنها مسرورة، وهي تمشط شعري بالمشط، وتحبك ضفائري، ثم قالت بحزن:

- آه! يا ماما، لقد كانت ضفائرك ثخينة، وشعرك كثيف، عندما كنت شابة.

لقد مررت بيدها فوق رأسي، وبحنان أمومي مسحت بكفها وجهي، فلم أرفع نظري، وفوراً نزعت الدموع متدحرجة لحبات البرد على وجنتي "أدركت من هذا، أنها تودعني" - فكرت بأسى عميق، وبعد أن حبكت ظفائري، وانتهت، تناولت من صندوقها عطراً قديماً كان قاسم قد أهداها إياه، وكانت تحافظ عليه طيلة الفترة، فحاولت رفض ذلك، وحاولت الابتعاد عن الموضوع.

ماذا حلّ بك يا عليمان، يرعاك الله! لماذا كل هذا الاهتمام بي؟ فمن العيب في هذا السن أن نتعطر بالعطور الفواحة. الناس سيسخرون مني!

أما هي فلم تسمع كلامي، ضحكت محاولة إفراحي، عطرت وجهي ورقبتي ورأسي، وصبت كل ما كان في القنينة الصغيرة، ثم أخذت تغمرني بكلتا يديها، وهي تنظر إليَّ من كل الجهات وهي تقول سعيدة لما تخفيه.

- انظري، كم أصبحت شابة جميلة عندي! - هكذا يجب أن تكوني دائماً. - لقد كانت هي مغتبطة بإحساسها الداخلي.

أما أنا فقد فردت أساريري، وشعرت بالراحة، وبعد أن احتسينا الشاي، قالت عليمان:

- الآن سوف نرتاح، يا أماه. سوف أفرش لك فراش نومك.

- في تلك الليلة، لم نعرف نحن الاثنتان، النوم، فعليمان كانت تفكر بشأن ما يخصها، وهي تتنهد واضعة رأسها في الزاوية، وهي تتقلب من جنب إلى جنب، أما أنا، فكانت روحي مليئة بخصوصياتها، فكنت أتذكرها كيف جمعت أزهار الخبيزة البرية، وركضت إلى قاسم عبر القمح الطويل، وهو يجلس عند دفة قيادة الحصادة، وكيف عادت من لدنه فرحة نشطة، وتذكرت كيف

عاندت، قاسم، ولم تسمح له بالركوب على الحصان، وكأنها طفلة صغيرة تبكي، وتشد بيده، وتذكرت كيف ذهبت وإياها نرى المحطة، وتوهمت أننا نركب فوق العربة وعليمان تجلس إلى جانبي وخداها قد احمرا من الجليد، والثلج قد تكدس فوقنا، وكأن الثلج قد التصق نصف الشال الملامس لشعرها من الأمام، وعلى قبة معطفها. وبدت بهذا الوضع أكثر جمالاً وأنوثة، ولقد رأيتها في أحلامي عدة مرات كيف هرعت راكضة نحوي بيدين مفتوحتين، وهي تصرخ: "ماما، لقد أصبحت وإياك أرملتين بائستين تعيستين"، وإما تذكرتها كيف هربت مني في منديلها الأسود عبر الأرض الحمراء تجمع السوسن. لقد كانت الروابط والذكريات التي تجمع بيننا كثيرة للغاية، وتتزاحم في ذاكرتي الآن، عندما أحسست بأنها سوف تغادرني مع هذا الراعي، وهي تسوق له القطيع عبر الأراضي، وكأنني أسمع الآن صوتها: "سامحيني، يا ماما، إنني أغادرك، سامحيني إذا أخطأت، وداعاً يا أماه، هرعت أركض خلفها عبر الطريق الملتوي، لوحت لها بيدي مودعة: "وداعاً، يا نوري الباقي! لقد غبت، يا نجمتي الحبيبة، وداعاً، يا عليمان كوني سعيدة وداعاً!.. أيها الشاب! صرخت للراعي - انظر، احذر أن تحزن عليمان حافظ على كنتي وإلا لدعوت عليك باللعنة نعم باللعنة الشريرة القاتلة! بللت الدموع وجهي، وسالت على الوسادة، لقد بكيت صامتة، وأنا أغطي رأسي كلياً حتى لا تسمع عليمان صوت نحيبي.

- في اليوم التالي عندما عادت عليمان من العمل لم تذهب إلى أي مكان، وبقيت معي في المنزل، وبعد هذا ساق الراعي أغنامه بعيداً عن القرية، ولم يعد يظهر على الساحة نهائياً. ولقد بدا هذا على عليمان، إذ عانت في داخلها، وبان عليها، أنها عابسة وغير مسرورة.

ولقد وبختها في داخلي، وحزنت لوضعها:

"آه يا عليمان، كان عليك أن لا تبالي لأمري، وتذهبي معه طالما أنه أعجبك. - آه، أيتها المسكينة، أنت معذبتي، وحمّالة كل المآسي، ولماذا ولدت في هذا الكون الأعثر، تعيسة هكذا!" ولكن الزمن قد مرّ، وأخذت عليمان تنسى هذه القضية العابرة.

في الربيع المبكر، وقبل كل الرعاة، عاد هذا الراعي للظهور في قريتنا، وقد لاحظت حصانه في أرض الفيضانات، حيث كان يرعى الأغنام، ومن جديد عادت عليمان تخرج في المساء، وتعود في ساعة متأخرة، أما أنا فلم أقل لها شيئاً فعليها بالذات، أن تقرر مصيرها.

ذات يوم، انتظرت عليمان طويلاً، فالقرية كلها كانت نائمة، وأنا اضطجعت خففت نور المصباح، ولكني لم أقدر على النوم فالقلق أخذ مني مأخذه، وكأن جبلاً من ملح قد قبع فوق قلبي، كنت أرهف السمع حتى لا يفوتني أي صوت، أو استغاثة أو حفيف ورقة خلف النافذة، وعلى بهو البيت كان القمر يشع بنوره، ولم تخفيه بعض الغيوم العابرة التي حاولت مداعبته من أطرافه، وكان الطقس هادئاً ربيعياً أصابتني رجفة، ليس من البرد، بل من وجودي وحيدة لففت نفسي في الفروة، وجلست أفكر، ثم نمت في وضعي، وعندما استيقظت على صوت حفيف ما؛ نظرت - لقد جاءت عليمان، ووقفت عند الباب - الأزرار مقطعة على صدر فستانها، وظهر صدرها عارياً، وشعرها منفوشاً، وعيناها غارقتين في ضباب قاتم، هذه أول مرة أراها ثملة، تجاوزت عتبة البيت ترنحت يمنة ويسرة، وبالكاد بقيت واقفة على رجليها، تمسكت بالمدفأة، وأخذت تلوح برأسها، ولحظتها غمرتني قشعريرة باردة، وأخذت أرتجف.

أما هي فقد رفعت رأسها بعينين ذابلتين، ثم سألتني:

- لماذا تنظرين لي؟ أرجوك، لماذا تنظرين لي؟ نعم أنا ثملة، نعم لقد شربت الفودكا؟ وماذا بقي لي أن أعمله في هذه الدنيا التعيسة؟ فمن له أن يشرب، غيري أنا آه؟ لماذا أنتِ تلتزمين الصمت؟

لقد خرست، وجمد لساني في فمي، ولم أعد أستطيع أن ألفظ ولو كلمة. لقد كان مخيفاً لي، أن أرى كنتي في هذا الوضع اللامعقول. أما عليمان فقد بقيت واقفة كما هي، تتمسك بالموقد، وهي تحني رأسها، وفجأة عادت للكلام بلغة الإنسان الثمل المتقطعة:

- أنتِ، يا أمي، لا تعرفين شيئاً، أما أنا... أنا اليوم... تذكرين، عندما ودعنا قاسم، ذهبت أنا وإياه إلى النهر هناك... - وتوقفت عن الكلام، وصرخت، وأمسكت رأسها، وسقطت على الأرض، وأخذت تبكي بمرارة، وبصوت هش.

ساعتئذٍ، عدت إلى وعيي، هرعت إليها، رفعت رأسها عن الأرض وضممتها إلى صدري، وأنا أسألها:

- ما بك، يا عليمان؟ لماذا تبكين هكذا؟ أخبريني؟ لقد حزنت؟ هل من شخص أغضبك؟ أخبريني، أخبريني! أو أنت غاضبة مني؟ فإذا كنت غاضبة، أخبريني، وقولي لي ما الذي يعذب روحك...

- كلا، كلا، يا ماما، يا ماما تشكا[1]! - قالت عليمان، وقد تحشرج صوتها بالدموع الكثيرة الساقطة في حنجرتها - آه!، يا ماما الوحيدة، يا مسكينتي، ومعذبتي، يا لك من تعيسة في هذه الدنيا! فأنت لا تعلمين شيئاً ولو علمت، ماذا بإمكانك أن تعملي؟ آه، يا ماما، ماما، آه يا ماما!

1- يا ماماتشكا - تحبب، وحنان، وعطف نحو الأم، وهنا تخاطب عليمان حماتها، وهي بمثابة أمها، بل أكثر -المترجم.

أخذت تتنهد، وتتنفس بصعوبة وتئن، وهي تضع رأسها فوق صدري، وقد شعرت، كيف كانت تنزل الدموع فوق صدري، ثم أخذت تهدأ تدريجياً، وأخذها النوم وبكنفها، وحتى في النوم، كانت تتنهد، وتبكي، وتئن، وتصرخ رافضة شيئاً ما، وحتى الفجر كنت جالسة إلى جانبها، أمسح على رأسها، وأفكر كيف لنا أن نتصرف فيما بعد؟ وما العمل؟ وقررت أن أتكلم معها مباشرة، ولكنها في الصباح رفضت أن تتكلم معي، وبدون الحديث كانت تشعر بالإقياء، نظرت نحوي بعينين ذابلتين، وكأنها تطلب مني أن لا أذكّرها بما حدث في الليلة الماضية، ولكن عندما خرجنا إلى العمل، قالت لي بهدوء عند البوابة:

- سامحيني، يا ماما.

لم أعد أزعجها، وأزيد عليها ألماً.

مضت ثلاثة أشهر، وفي الصيف جرت محاكمة الهارب من الجيش جينشينكول الذي بعد الحرب لم يقرر أن يعود إلى الكولخوز علناً. ففي الخفاء، وفي الليالي كان يأتي إلى بيته أحياناً، ولقد كان يختفي بصورة رئيسية في كازاخستان، إذ عمل في التهريب، وتجارة الممنوعات، ويسرق بعض المواشي والحيوانات، ويبيعها بعيداً عن المكان الذي يسرقها منه. وأخيراً وقع في الشرك، وبانت الأعمال الإجرامية التي قام بها، ونقلوا جينشينكول إلينا في القرية حتى يعترف مباشرة أمام الشعب، ولقد جاء إليّ شخص مرسل من مجلس الريف، وقال لي:

- يطلبونك شاهداً.

خرجت إلى الشارع، ومباشرة التقيت عليمان عائدة من العمل، يظهر عليها التعب، والاكتئاب، وتسير وحيدة، بعيداً عن كل

الناس، ولقد اسمرت جداً في ذلك الصيف، ولقد تأسفت لوضعها، وحتى لا تجلس في البيت وحيدة، قلت لها:

- لنذهب، يا بنيتي، لنذهب إلى الإدارة، وسنعود إلى البيت معاً.

أما هي فقد أجابت:

- كلا، يا ماما، ماذا سأعمل هناك؟ سأذهب إلى البيت، ثمة آلام شديدة في رأسي.

- اذهبي، - قلت لها، - استريحي، ونامي، فأنا سأحلب البقرة.

بالقرب من مجلس الريف عمّ الهدوء الكلي، وهناك سيارة مكشوفة، وفي الشرفة كان هناك أناس كثر تمّ استدعاؤهم للإدلاء بشهاداتهم حول هذا الهارب المجرم. فمنذ زمن بعيد لم أرَ جينشينكول تقريباً سبعة أعوام مضت على آخر مرة رأيته فيها. ويبدو أن حياة الإجرام قد أتته بنفع، فأصبح سميناً عريض المنكبين، منتفخ الوجه، كان يجلس على المقعد جانب النافذة، ويجيب بفظاظة عن الأسئلة، وينظر مهدداً بعينين وقحتين متوعدتين عند الإجابة عن أي سؤال، إذ قال لشخص ما بتجهم، وهو يجيب عن تهمة:

- أنت تقول، أنني حرامي، وأنت أمسكتني بيديك. هل رأيتني بعينيك؟ كلا! هكذا إذن لا تدلي بشهادتك عبثاً هكذا، بإمكانك أن تقول مئة مرة، وكل هذا كلام فارغ لا معنى له، هاتوا حقائق، حقائق!

عندما سمعت هذا، اقتربت من النافذة المفتوحة، وصرخت من الشارع:

- أنت تكذب أيها المجرم الوغد! تلزمك حقائق - فها أنا حقيقة واقعة أمامك! وهنا دعاني المحقق للدخول، وحياني بعد أن وقف خلف الطاولة، وقال:

- تفضلي يا ماماشا [1]، ادخلي إلى هنا.

دخلت إلى الغرفة، وباشرت الكلام مباشرة.

- نعم، لسوء الحظ أننا لم نحظى بك في مكان الجريمة. بالطبع لم يكن لدينا الوقت، ولا الظرف لملاحقتك. إننا كنا نحرث الأرض بأظافرنا، وكنا نعمل آنذاك لنحصل على الخبز للجبهة، وكنا نجمع السنابل البسيطة حتى نطعم الأطفال، وأنت سرقت خيولنا من تحت المحراث، وهدمت قوة العمل في الكولخوز، وأنت قد أخذت من أيدينا آخر كمية قليلة من البذار، قمنا بجمعها حبة فحبة من الأهالي في الكولخوز، وبهذا حرمت الأطفال من الخبز، هذا يعني أنك كنت عدواً لدوداً للشعب. وعندما لحقت بك، لقد صرخت لك: "قف إنني أعرفك، جينشينكول قف! فتوجهت نحوي، وأطلقت النار عليَّ. ألا تكفيك هذه الحقائق!

صمتّ، بينما قال المحقق لي:

- شكراً لك يا ماما. أنت الآن حرّة بإمكانك أن تذهبي إلى البيت.

خرجت من مجلس الريف، وهناك عند الباب خرجت زوجة جينشينكول، وهاجمتني كالكلب المسعور، وهي تصرخ بأعلى صوتها:

- آه، يا لك، أيتها المرأة القاسية الوحيدة، أنت تبحثين عن الحقيقة، والحقيقة ستدينك.

هذا هو جزاؤك! قليل ما حل بك، الآن ستبكين كما يجب ومن أين البطن عند كنتك، آه؟ وبالقرب من أنفك تعيش عاهرة،

---

[1] ماماشا - صيغة احترام، وتكريم للإنسانة الكبيرة في السن، عندما لا يعرف الإنسان المخاطب اسمها كاملاً. - المترجم.

انتفخ بطنها، وأنت تبحثين عن الحقيقة هكذا، ابحثا الآن معاً، يا لكما من عاهرتين بلا حياء!

أخذ الناس هذه المسعورة بعيداً عني، أطبقوا فمها في الزاوية ولكني قلت لهم:

- أطلقوا سراحها، لا تضربوها! - وسرت صامتة إلى البيت.

لا أعرف هل كان غباراً كثيفاً ساخناً لهذه الدرجة، أم أن الخجل قد أخذ يحرق رجلي. وفي البداية كنت أحس أنه من الضروري أن أركض، ثم أخذ يخف تدريجياً، وأخذت أجمع أفكاري، ولم يحدث لي سابقاً أن فكرت هكذا، وهل كان من الممكن أن أحزر في الآونة الأخيرة كيف تغيرت عليمان بشكل واضح وغريب، فلم تعد تتحدث كما كانت، وتجنبت الاقتراب من الناس حتى عن صديقاتها المقربين. ولقد فهمت أنه لم يحصل زواج بينها وبين الراعي، وقد صعد في الربيع إلى الجبال مع أغنامه، وفقدنا أي أثر له. ولقد كنت أفكر أنهما لم يتفقا، ولم يحصل بينهما شيء، فلذلك كانت تعاني بينما أصبح الأمر الآن يختلف كلياً عما أفكر. آه، أية مصيبة! فمن كان بإمكانه أن يعرف، أن الأمور ستكون هكذا، لقد فقدت أعصابي، ولم أتصور ولا أعرف ما عليّ أن أفعل، في اليوم الثاني مساء، نادتني عائشة، حتى أذهب إليها، وأتفحص لها الضوء، وفي نفس الوقت قالت أن الأحاديث بين الناس تقول:

- إن زوجة جينشينكول قد انتقلت في الليل من الكولخوز إلى جهة مجهولة.

لقد التزمت الصمت، فماذا يهمني من أمرها؟ رحلت فهذا الأمر يهمها، وكل إنسان حر بنفسه. ولكن فيما بعد مرت سنتان، وعلمت أنه جاء أناس في الليل إلى زوجة جينشينكول، وحملوا أغراضها على

عربة، وقالوا: "ارحلي إلى أي جهة ترغبين، فليس لك مكان عندنا في القرية". وبعد هذا لم يعد أحد يذكرنا بالمصيبة التي حلت بنا مع عليمان ربما قالوا لها بالذات شيئاً ما، وربما فكر الناس بشتى المواضيع في داخلهم منهم مَنْ تأسف، ومنهم مَنْ أدانها، ولكن لم ينوه لي أحد كان من كان، حول هذا الموضوع شيئاً ما. ولهذا أقول: شكراً لكل الناس في قريتنا، فلقد مضت عدة سنوات وكل شيء كما كان، بقي الناس يكنون لي الاحترام والتقدير.

بعدما علمت أن عليمان قد حملت، لم يتغير شيء في علاقتنا، أخذنا نعمل، ونعيش سوية كما كنا، وتشاورنا، وتقاسمنا الأفكار كالسابق. أما بخصوص مستقبلها بعد الولادة، لم تقل عليمان أي شيء، إما كانت تخاف من طرح هذا الموضوع، وإما أجلت هذا الأمر لبعض الوقت، وأنا أيضاً قد التزمت الصمت، ولم أحاول جرح عزتها الشخصية. والمهم في الأمر أنني لم أدنها مطلقاً، ولم أملك الحق في هذا لأنها كانت خلال الفترة الماضية التي عشناها سوية، وهي فترة طويلة إنسانة سوية لم ألحظ شيئاً سلبياً عليها، وكنت أفهم كل شيء، وفي أي الأمور كنت أنا المخطئة بحقها. ولذلك قلت مباشرة: إذا كانت عليمان قد ارتكبت إثماً، فإثمها هو إثمي أيضاً، وإذا أنجبت طفلاً فسيكون لها ولي، وكل عار، وكل صعوبات، وعذاب سأتحملها بنفسي. لقد عرفت كما كانت هي تعلم، عاجلاً أم آجلاً سيأتي اليوم الذي سنتحدث فيه وتفقر لبعضنا الصمت الطويل الذي ساد بيننا، وكنا نؤجل الحديث اليوم إلى الغد، وغداً إلى بعد غد. وجاء اليوم، وأخذنا نتحدث بصراحة.

في نهاية الصيف، عندما كانت عليمان في شهرها الخامس أو السادس للحمل، نهضت باكراً، وأخذت البقرة إلى القطيع، أما الولد

الراعي فأخذ يدندن أغنية يحبها، وعندما أصبح القطيع إلى جانب بيتنا، ابتسم الولد الراعي لي، وهو يسوق الأبقار، ابتسامة عريضة على عرض وجهه، وقال لي:

- يا خالة تولغوناي، هل ستعطيني إكرامية على خبر سار؟ إن كنة الجد جوروبيك قد أنجبت!

- صحيح! متى كان ذلك؟

- عند الفجر.

- صبي أم بنت؟ - سألته بتودد.

- بنت، يا خالتي، تولغوناي، وقالوا أنهم سيسمونها جافاروناك [1]، لأنها ولدت عند الفجر، كما تستيقظ القنابر.

- هذا شيء جيد. عسى أن تبقى سالمة، وتعيش طويلاً، شكراً لك على الخبر السار.

- لقد تأثرت جداً، إن هذا الولد الراعي اليتيم، كان فرحاً جداً لولادة طفلة جديدة في هذا الكون، كنت سعيدة لهذا، وعدت إلى البيت مبتسمة، ولكن كيف حدث هذا، فقد نسيت في هذه اللحظات، عما كنت أفكر في النهار والليل؟ عند ذلك صرخت بأعلى صوتي عند البوابة:

- يا عليمان، هل سمعت بالخبر؟ لقد ولدت كنة جوروبيك، بنتاً، هل سمعت بذلك؟ كم عانت المسكينة في فترة حملها! الحمد لله، إن كل شيء تمَّ على خير شكل وبسلامة... وقبل أن أنهي تنبهت، وكأنني عضضت على بحصة فوق السن الذي يؤلمني.

وقفت عليمان صامتة، مطأطئة الرأس، وشحب لونها، وهي تعض على شفتيها، وماذا فكرت في تلك اللحظة؟ ربما فكرت متى

---

[1] جافاروناك - تعني باللغة العربية - قنبرة.

ستلد هي، ولم يخبر الناس بعضهم بمثل هذه الفرحة عن ولادتها. لقد شعرت بالخجل، وانتشرت في جسمي حمى نتيجة تصرفي الغبي هذا، لم أعد أجرؤ على النظر إليها في عينيها، وجلست جانب الموقد، وأخذت أضع قطع الزيل اليابس في النار، ناهيك عن أنه لم تكن هناك حاجة لهذا، وبعد ردهة من الزمن نظرت إلى عليمان، فوجدتها مازالت على وضعها تنكس رأسها إلى جانب الجدار، وهي تنظر إلى الأرض أخذ قلبي يدق بسرعة من الخجل ومن الشفقة عليها في آنٍ واحد، فأجبرت نفسي على الوقوف والتقدم منها.

- ماذا حلّ بك، هل تشعرين بألم؟ سألت بهدوء.

- كلا، يا ماما، - أجابت هي.

- ربما تشعرين بالتعب في عملك - فابقي في البيت وارتاحي.

- كلا، العمل ليس متعب يا ماما، أنسق أوراق التبغ في خيوط.

وهذا ليس صعباً نهائياً - قالت هي، وذهبت إلى العمل.

عند ذلك قررت التحدث معها، لأنه لا يجوز الانتظار أكثر. ومن الضروري القول لها الآن: أنه عليها ألا تخجل، وأن الأطفال الذين يولدون متشابهين، وأن طفلها سيكون قريباً لي، وسوف أعتني به وأربيه معها، وأرعاه كما رعيت، وربيت أولادي، ولتفهم هذا، ولا تنكس رأسها، ولتمش بعز وكرامة، وتنظر إلى الناس في أعينهم بلا خوف ولا خجل، فلها كل الحق أن تكون أماً، وأن تمارس مشاعر الأمومة.

ومع هذه الأفكار ركضت خلفها، وناديتها:

- عليمان، انتظري دقيقة، لي حديث معك توقفي!

ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمع، ولم تلتفت نحوي.

قلقت طيلة النهار، وأخذت أفكر: "كلا، لا يجوز أن يستمر الأمر هكذا، ففي المساء سأقول لها كل شيء، وهكذا سيكون الأمر أفضل لها ولي" ولكن لم أتمكن من تنفيذ ما قررته، ففي المساء عندما عدت من العمل لم تكن عليمان في البيت، انتظرت طويلاً، وقلقت جداً ماذا حصل لها؟ لماذا تأخرت كثيراً هكذا؟

جهزت نفسي للخروج، والبحث عنها، وعندما خرجت من البيت شاهدت بيكتاش وقد دخل بصمت إلى البيت مع حزمة حشائش خضراء، ومن ثم قام بقذفها بهدوء إلى معلف البقرة، وعندها قال بتردد:

يا خالتي تولغوناي، لقد طلبت عليمان أن أخبرك حتى لا تبحثين عنها، فهي قالت بأنها سوف تذهب إلى كايندي، وهنا خانتني رجلاي وهبطت عند العتبة.

- متى غادرت؟ سألت بيكتاش.

- بعد الغداء، وقبل ساعتين من الآن غادرت مع سيارة متجهة إلى هناك.

جلست كمن تكسرت أطرافه، وأخمدت قواه، وأخذ وضعي يسوء، حتى أصابني شيء من الدوران، والإقياء، وغطست روحي في ظلمة شديدة، وكأن ساعة موتي قد حلت، وأخذ بيكتاش يهتم بي، ويهدئ من روعي، وقال:

- لا تقلقي يا خالتي تولغوناي. إن السائق قد أجلسها إلى جانبه في حجرة القيادة، وهناك الجلوس مريح.

"إيه، يا بيكتاش، بيكتاش، لو كان الأمر ينحصر في هذا!" فكرت في قرارة نفسي. وأنا على أية حال شاكرة له، على اهتمامه البريء بحالي.

وفي تلك الآونة، كان كبر وأصبح شاباً ناضجاً، وأخذ يعمل في الكولخوز في مجال النقل نظرت إليه، واستغربت كيف كبر بسرعة، وأصبح له كتفان عريضان، وأصبح صوته خشناً، وخطواته رجالية، ووجهه هادئ، ومحياه سمح وبشوش! وكنت أحبه منذ صغره وشعرت بأريحية، أنه، وفي هذه الساعة الصعبة بالنسبة لي، جاء إليّ يواسيني. جلب بيكتاش الماء من القناة، وجهّز السماوار، رشّ الساحة أمام البيت بالماء، وأخذ يكنس باهتمام، ثم قال لي:

- أنتِ استريحي يا خالتي تولغوناي - الآن سأضع لك اللبادة تحت شجرة التفاح، وستأتي ماما، وتقول أنها مشتاقة لشرب الشاي معك. الآن ستأتي.

- بعد مغادرة عليمان أصبحت الأيام طويلة ولا تطاق وهل كان لي أن أتصور نفسي قبل الآن وحيدة؟ فأنا لم أعرف، كما اتضح لي الآن. - ما هو شعور الوحدة الحقيقي. صبرت ثلاثة أيام، وبعد ذلك ضاق بي الصبر، وخرجت عن طوري، فالبيت لم يعد بيتاً والحياة ليست حياة، فعندما كنت مع عليمان، كان من الممكن أن أخرج معها إلى أية جهة، ونسير في الطبيعة، وعندما أفكر بحال عليمان يصبح حالي أصعب بكثير. حسناً لو أن أهلها قد استقبلوها بشكل جيد، وماذا سيحل بها، إذا أخذوا يسخرون منها؟ سابقاً لم ترغبي أن تستمعي لنا، إذ ليس الشأن شأننا، وليس علينا أن نتدخل في شؤونك، أما الآن فقد قدمت حاملة للعار تبحثين عن حماية، الآن أصبحت بحاجة لنا، وأصبحنا لازمين لك. سيكون بإمكانهم أن يقولوا لها هكذا، بالطبع بإمكانهم، وإذا قالوا، ماذا سيحلّ بها هناك؟ فهي عنيدة، وذات عزيمة، فهل ستتحمل الإهانة؟ لا سمح الله أن تمد يدها إلى روحها. آه، يا عليمان، عليمان، لو كنت إلى جانبي، لكنت قد

أخذت كل شيء على نفسي، بما في ذلك أي عار، ولن أسمح لأحد أن يسيء لك! وفكرت بكل شيء، ووضعت كل الاحتمالات، وفكرت بأشكال عديدة، ثم قلت لنفسي: "كلا، هكذا لا يجوز سأذهب، وأعرف، وأنظر بنفسي، وسوف أطلب منها أن تعود معي، وأرجوها أن تعود إلى البيت كم ستكون سعادتي كبيرة، إذا وافقت على العودة من جديد، وإذا لم ترغب بالعودة، أكون قد قمت بواجبي، وفعلت ما باستطاعتي، وسأتمنى لها الخير والسعادة، وأبكي حتى يصفو رأسي وأعود! هكذا قررت. وفي اليوم الثاني جهزت نفسي للسفر، ووكلت عائشة على البيت والبقرة. وأوقف بيكتاش في الشارع سيارة متجهة إلى كانيدي، جلست في القاطرة وانطلقت.

- عندما خرجنا من القرية، وتحركنا نحو السكة الزراعية لاحظت وجود امرأة تسير عبر طريق ضيق في الأرض المحصودة، عرفت عليمان فوراً! يا قريبتي يا حبيبتي الوحيدة، لقد عادت إليّ إلى البيت، أخذت أضرب بكلتا يدي على حديد حجرة قيادة السائق: "قف! قف! توقف!" سارت السيارة مع السرعة إلى الأمام قليلاً، وتوقفت، وعلى الفور تمسكت بالحديد، ونزلت من المقطورة، تصاعد الغبار حول السيارة، ولم أعد أرى لمسافة بعيدة ولم أعد أرى عليمان كما في الضباب. وفكرت أين اختفت كما في الأحلام رأيتها سابقاً؟ وعندما انقشع الغبار خلف السيارة بانت عليمان من جديد، فصرخت بكل ما لدي من قوة الصوت:

- عليمان - توقفي يا عليمان!

ولا أذكر، كيف ركضت نحوها. أذكر فقط، تعانقنا، وقبلنا بعضنا بعضاً ثم بكينا سوية هكذا، اشتقنا لبعضنا بعضاً، وحتى لا أجد الكلمات المناسبة لوصف هذه الحالة من الهيام الروحي،

وماذا خطر في بالي، فمررت يدي على شعرها وعلى وجهها، وأنا أقول لعليمان شيئاً واحداً، أكرره بحب كبير:

- لقد عدت يا حبيبتي؟ لقد عدت يا بنيتي، عدت لي، عدت لأمك، لقد عدت حقاً!

بينما تجيب عليمان:

- نعم، عدت! عدت، يا ماما، عدت إليك!

وعندما وقفت محتضنة عليمان، شعرت كيف تحرك الجنين في بطنها، وركل برجليه مرتين إلى بطني، لقد شعرنا نحن الاثنتان بهذه الحركات البديعة. وضعت عليمان يديها على بطنها، وأخذت تدلكه بهدوء بكف يدها، ولقد أغمضت عيناها. في تلك اللحظة انقلبت كل حياتي رأساً على عقب. وكيف دخلت إلى رأسي أفكار سيئة عنها! عن الأمومة المقدسة! فنقطة واحدة من هذه السعادة تغمر بحراً من المعاناة لديك. ضممت وجهي إلى وجنتها، ولم أتمالك أعصابي، فبكيت:

- يا عزيزتي الغالية، يا قلبي الحنونة! كم خفت عليك!

أما عليمان، فقد أخذت تهدئ من روعي:

- لا تبك، يا ماما. سامحيني على غبائي. فليس لي أي مكان أذهب إليه بعيداً عنك! حاولت، فلم أتمكن نهائياً: لم أقدر على الصبر، وكنت أفكر بك كل الوقت، وأحنّ إليك.

قررت أن الوقت قد حان الآن للمصارحة الصادقة، فقلت لها:

- لماذا أنت غادرتِ عني، هل أزعجتك حتى غضبت مني؟

التزمت الصمت، كأنها تفكر بما ستجيب، ثم قالت، وهي تشهق الهواء: - لا تسأليني عن هذا يا ماما! هل هذا ضروري؟ فلا تقولي لي أي شيء، فلن أقول لك شيئاً، لا تعذبيني يا ماما، إن وضعي صعب، بدون هذا.

وها هي مرة أخرى تبتعد عن الانخراط في الحديث، وهكذا في كل مرة، فكيف لم تفهم، أنها بهذا الصمت كانت تعقد من وضعها، وتزيد التراكمات على روحها!

كان خريف هذا العام طويلاً، وممطراً للغاية، لم يمضِ يوم واحد، إلا ونزلت بعض الأمطار من الأعلى. وفي هذه الأيام الرطبة والطويلة، والأيام الماطرة كنا نجلس أغلب الأحيان في البيت، حتى كفت عن الحديث والابتسام، وكانت تفكر بشيء ما، وقد استسلمت لي: كانت في الأيام الأخيرة في فترة حملها، ومهما حاولت واجتهدت في تحسين مزاجها بالطُرف أو غيرها. لم أصل إلى نتيجة إيجابية، فهي ليست طفلة صغيرة حتى تزيح الكآبة عنها بطرفة أو حكاية مفرحة. وليس وحدي، بل الآخرون أيضاً حاولوا مساعدتها في تحسين وضعها السيئ، ولكن ماذا كان علينا أن نفعل؟ لقد حمل بيكتاش لنا القش، وقال أن أمه مرضت ثانية. ذهبت إليها فكانت درجة حرارتها مرتفعة للغاية، وكانت تعاني من سعال شديد، فلمتها وواسيتها قليلاً، وقلت لها:

- أنتِ قد أخطأت بحق نفسك، وتعرفين أنك مريضة، وعليك أن تعتني بنفسك، ولكن لم تراعي كل هذا، وذهبت إلى القرى حيث حللت ضيفة في هذا الطقس السيئ.

- ابتسمت عائشة، وقد شعرت بالخطأ، وكان من الصعب عليها أن تعترض على ما قلته لها، لأنها سافرت مع ثلاث نساء على عربة بيكتاش إلى القرية المجاورة كضيوف إلى أسرة ما، بمناسبة زفاف، وعندما هممت بالخروج، استوقفتني عائشة، وقالت:

- توقفي يا تولغوناي، يوجد عندي ما أقوله لك.

- لقد ذهبت إلى القرية المجاورة، وليس إلى العرس، وليس لدي أقارب هناك، وأنت تعرفين هذا. لقد فكرت مع بعض النسوة بأن نذهب وبدون إذن منك، وسامحينا على هذا يا تولغوناي. كانت رغبتنا أن نعمل عملاً جيداً. وجدنا هذا الشاب الراعي، وأمسكناه -كما يقال- من حنجرته، وقلنا له: لا يجوز أن يبقى الأمر هكذا، فعليمان قد أشرفت على الولادة، ولم يبقَ لها إلا أيام، وأنت لم تظهر للعين مطلقاً، فكيف من الممكن أن تتصرف هكذا؟ فهذا تصرف سيئ! ولكن الحديث معه كان بلا نتيجة، ودون فائدة، فهو في أول الأمر متزوج، وثانياً بدا لنا على حقيقته أنه بلا ضمير فأخذ يقول: لا أعرف شيئاً عن هذا، ولا أريد أن أعرف، ولم نجد مخرجاً معه. زد على ذلك، أن زوجته قد أحسّت بالأمر، وخرجت مسعورة. يا لها من امرأة شرسة لا حياء عندها، صرخت فينا وشتمتنا بكلمات نابية لا تعاد وطردتنا! وخلال الطريق هطل مطر غزير علينا، فتبللنا بشكل كامل، ولهذا مرضت ونمت وهذا غير مهم، فما العمل الآن؟ وعضت عائشة على شفتها، وأطبقت فمها، وأخذت تبكي. فقلت لها:

- لا تبكي يا عائشة، فما دمت على قيد الحياة لن أسمح وسأعمل دائماً حتى تكون عليمان في خير، وخرجت. وماذا كان بإمكاني أن أقول؟

مرت أيام صعبة، واقترب موعد الولادة، ولذلك كنت لا أبتعد نهائياً عن عليمان، إن كانت في ساحة المنزل أو في أية زاوية أخرى لم أتركها وحيدة، وكنت خائفة أن يفوتنا الطلق عند بدء الولادة ولكن ولسوء الحظ كأنها ملّت وضجرت مني؟

وذات يوم نظرت إليها كانت قد لبست ثياباً دافئة ولفت نفسها بشال، فأثارت اهتمامي، وسألتها:

- إلى أين أنت ذاهبة يا بنيتي؟

- سأذهب إلى النهر، - أجابتني بهدوء.

- ماذا ستفعلين هناك، في هذا الطقس، عند النهر، فالجو رطب جداً؟ فاجلسي في البيت أفضل لك.

- كلا، سأذهب.

- فقلت لها: - إذا كنت مصممة على ذلك، فأنا سأذهب معك أيضاً.

أما هي فقد نظرت إليَّ بصراحة - ولفظت كل ما كان يغلي في جوفها خلال هذه الأيام الماضية، وانفجرت كالبركان، وبشكل لم أرها فيه من قبل، وهي تقول لي:

- ما بك وقفت في طريقي؟ ماذا يلزمك مني؟ ما بك تسيرين في إثري أينما خطوت ترافيقنني كالظل؟ اتركيني وشأني! تفكرين بأنني سأموت لا تخافي، لن أموت. أغلقت الباب بشدة، وغادرت.

شعرت وكأنها قد أطبقت الباب على قلبي. غضبت من تصرفها جداً، ولكنني لم أبقَ جالسة، فخرجت إلى ساحة البيت أرقب إلى أين ذهبت، ولكن عليمان كانت قد ابتعدت ولم أجدها، ربما ذهبت نحو النهر.

كان المطر ينزل بهدوء ناعم وكأنه بخار بارد عمَّ الكون، وجرّت الريح خلفه غيوماً بيضاء كالشيب في الأفق، وكان كل شيء غير مريح في حديقة المنزل، فالأشجار كانت عارية جرداء، وبدت أغصانها سوداء ورطبة، وجلس الناس في بيوتهم، وخلت الطرق والساحات من الناس كلياً، وخلف الدخان والظلام، بالكاد كان من الممكن رؤية قمم السلاسل الجبلية السوداء.

انتظرت قليلاً ثم ذهبت في إثرها. سأدعها تقول ما تشاء، ولتسبني كما ترغب، وسيكون الأمر أصعب لو أنها اضطجعت في مكان ما، في هذه الرطوبة، ويبدأ طلق الولادة. وعندما خرجت إلى الطريق خلف المنزل رأيت عليمان. كانت تسير ببطء وهي عائدة، وبالكاد تنقل رجليها واحدة بعد الأخرى، عابسة مطأطئة الرأس، أسرعت إلى المنزل، وضعت إبريق الشاي فوق الموقد، وقمت بتحضير زلابية مع القشطة والبيض على عجل، ثم فرشت فوق اللباد شرشفاً نظيفاً، ووضعت فوقه تفاحات حمراء شتوية جميلة، دخلت عليمان ورأت الشرشف، وشمت رائحة الشاي تفوح. ابتسمت بحزن وهدوء لي.

- هل بردت يا بنيتي؟ اجلسي سنشرب الشاي، ونأكل الزلابية، قلت لها بهدوء.

- كلا، ليس لدي رغبة في أكل أي شيء، يا ماما، أعطني تفاحة فقط، - أجابتني بلطف.

- إذا شعرتِ بأي ألم قولي لي، يا عليمان، - أخذتُ أقول لها باهتمام، ولكن عليمان قالت من جديد:

- لا تسأليني أي شيء، يا ماما فأنا لا أعرف نفسي، وأكره ذاتي ووجودي، ولقد تكلمت معك بفظاظة وخشونة بلا سبب، فمن الأفضل أن تتركيني الآن بهدوء.

- ولاحت بيدها علامة منها عن كرهها لهذه الحالة.

حلَّ الليل، وأخذت أفرش للنوم، ففكرت خائفة أن عليمان الآن حاقدة على كل شيء في مصيرها، ولن يعجبها أي شيء سأقوله لها. وخلدت للنوم بهذا المزاج الحزين. وعادة كنت أستيقظ في الليلة عدة مرات أستطلع فيها وضع عليمان، ولكن النوم قد كان ثقيلاً علي

كالصخرة على صدري، ولو عرفت أن هذا سيحصل لما خلدت للنوم مطلقاً - نعم، لما نمت عشر ليال مستمرة، ولن أسند رأسي إلى حائط...

لا أعلم، ولا أذكر، لأي سبب استيقظت فجأة، نظرت إلى فراش عليمان، فلم أجدها في مكانها. وبعد كابوس النوم الثقيل، لم أجمع عقلي مباشرة، ففكرت في بداية الأمر أنها خرجت إلى ساحة البيت لشأن ما. انتظرت قليلاً، فلم أسمع صوت حركة أو أي علامة تدل على وجودها، ثم تحسست فراش عليمان علني ألحظ أية علامة تدل على وضعها، فلم أجد شيئاً، وكان فراشها بارداً كلياً، مما يدل على أنها غادرته من فترة طويلة. تجمد قلبي في صدري. لبست كيفما كان وخرجت مسرعة إلى الساحة، وبحثت في كل الزوايا، وذهبت إلى الحقل، ثم إلى الشارع، وأخذت أناديها "عليمان! عليمان!" لم يجب أحد، وفقط تهيجت الكلاب، وأخذت تعوي. سيطر الفثيان على روحي، وأخذ قلبي يدق بسرعة: هذا يعني أنها خرجت ولكن إلى أين في هذه الليلة الظلماء؟ فما العمل الآن؟ ربما سألحق بها؟ عدت إلى البيت بسرعة، أشعلت المصباح، وأخذته بيدي، وخرجت أبحث، ولكن عندما خرجت من الباب سمعت صوتاً وكأنه أنين إنسان، ثم صراخ في ملحق البيت. ركضت مسرعة عبر ساحة البيت، فتحت باب الملحق، وكدت أرمي المصباح من يدي، وهناك رأيت ما رأيت حتى لم أصدق عيني. عليمان مضطجعة فوق القش مستلقية على الظهر، كانت تلد وهي في حالة صعبة، تلوح برأسها لشدة الحمى التي كانت تعاني منها.

- لماذا تفعلين بنفسك هكذا؟ لماذا لم تقولي لي؟ أخذت أصرخ، وهرعتُ إليها.

أردت مساعدتها، وأخذت أرفعها قليلاً، وهلعت عندما وقعت يدي على دم بارد وجامد تحتها، وفوق فستانها، وكانت عليمان تغلي

من شدة الحرارة. كانت تتنفس بصعوبة وبحشرجة، وهي تلفظ الكلمات بصعوبة:

- أموت، أموت.

كما اتضح لي أنها تتعذب في المخاض منذ ساعات.

- أنقذها، يا إلهي! أنقذها، يا إلهي - أخذت أكرر صلواتي لها، وأنا أفهم جيداً، أنها بعد هذا النزيف لم تعد قادرة على الولادة لوحدها، ولا يمكن إنقاذها إلا بمساعدة الطبيب.

تركتها، وركضت إلى عائشة، طرقت على النافذة بكل قوتي:

- انهضوا، انهضوا بسرعة، جهز يا بيكتاش العربة، عليمان وضعها سيئ، أسرع يا حبيبي، وضعها سيئ جداً!

أيقظتهم، وعدت راكضة، فأعطيت عليمان كوب ماء أخذت أسنانها تقرع أطراف الكوب، كانت تعاني من حمى شديدة، شربت جرعتين بصعوبة، ثم عادت تتلوى وتصرخ، وهنا جاءت عائشة، وبدت تتأرجح بالكاد تقف على رجليها، وهي مريضة للغاية، وعندما رأت حالة عليمان ومعاناتها، أخذت بالدعاء لها، وهي تكرر:

- آه يا عليمان، يا عزيزتي، ماذا حلّ بك؟ عليمان، يا بنيتي! لا تخافي الآن سننقلك إلى المستشفى.

لحسن الحظ إن بيكتاش في ذلك اليوم عاد إلى البيت متأخراً، ولذلك لم يأخذ الخيول إلى الإسطبل بل أبقاهم في البيت في عدتهم، ولذلك لم يتأخر، وبسرعة كانت العربة جاهزة أمام البيت، وضعنا القش في أرض العربة، ثم وضعنا فراشاً، ووضعنا وسادات، ثم حملنا نحن الثلاثة عليمان من الملحق، ووضعناها في العربة، وانطلقنا فوراً إلى المستشفى.

آه! يا لهذا الطريق الوعر في الخريف، آه! يا لهذه الليلة الظلماء الملعونة...! أما المستشفى فقد كانت وحيدة في المنطقة في زاريتشا، أما الجسر عبر النهر فقد كان بعيداً إلى الأسفل.

وبمجرد أن انطلقنا من القرية، بدأ الطلق عند عليمان، أخذت تصرخ، وأخذت تقذف بكل شيء وضعناه عليها حتى لا تبرد. أمسكت رأسها، ووضعته فوق ركبتي، وكنت أغطيها بالبطانية، وأقرب المصباح من وجهها لأستطلع وضعها، وأنظر إلى عينيها، وأهدئ من روعها، وكان بيكتاش يقول مطمئناً:

- اصبري! اصبري يا عليمان! قريباً سنصل، الآن! الآن، قريباً سنصل، هذا هو الجسر أصبح أمامنا.

وحتى الجسر كانت مسافة طويلة، ولم يتمكن بيكتاش من سوق الخيول بسرعة العدو القصوى خوفاً على وضع عليمان، حتى لا تغيب عن الوعي وهنا ازداد الطين بلة، وأخذ المطر يتساقط بشدة، وبدت الظلمة كأن أطراف الكون من جميع الجهات قد أطبقت علينا في بوتقة محكمة الأطباق. ولقد كان المطر بارداً، والوسخ والوحل يتطاير مع حوافر الأحصنة.

أما عليمان، فكانت تتلوى في مخاضها بلا جدوى، وهي تئن وتصرخ، وفجأة هدأت وأخذت تشخر.

- عليمان! عليمان! كيف تشعرين بنفسك؟ ارتعدت من الخوف عليها، حضنت رأسها ورفعته على ركبتي، وقربت المصباح من وجهها، وشكرت الله، أن عينيها كانتا تنظران إلي بحرارة.

- توقفوا! إنني أموت! توقفوا! أخذت تصرخ الكلمات بشفتين سوداوين منتفختين، وأخذت تشهق بصعوبة.

أوقفنا الخيول.

- ارفعي رأسي إلى الأعلى - طلبت عليمان مني، فالهواء لا يكفيني إنني أختنق، وأخذت تبكي، وترتشف دموعها، وتقول آه - يا أمي العزيزة... كل شيء يحترق في داخلي، لقد خارت قواي... إنني أموت.. شكراً لك على كل شيء يا أمي.. سامحيني... لو كان قاسم على قيد الحياة... آه، يا قاسم، أموت أنا.. سامحني.. أخذت أصلي من أجلها:

كلا، يا ابنتي، لا، لن تموتي، اصبري قليلاً، اصبري يا عزيزتي، ها نحن قد وصلنا إلى الجسر. أنت تسمعينني لن تموتي!

أصابها الدوران مرة أخرى صكت على أسنانها، وفقدت الوعي، كانت ترتعد، وتتحرك قليلاً بما تبقى لديها من قوة.

- بيكتاش - أمرته بسرعة - خذها من يدها، ارفعها! بسرعة! لا تستحي أرجوك من أجل الإله!

رفع بيكتاش عليمان، وأنا حاولت أن أساعدها في ولادة الطفل، ولكن بيكتاش لم يتحمل هذا، فأخذ يبكي بحدة، وهنا تذكرت فجأة صوت ضجيج القطار، وكيف تعاقبت العجلات، وهي تطرق السكة بطرقات متوالية وإيقاعية، وها أنا أسمعها الآن تضج في أذني، وأخذت الريح تحمل الصراخ بعيداً: "يا ماما - آ! يا ماما! آه!" والآن خرج صوت الوليد الجديد. آه، أيتها الحياة، لماذا أنت قاسية هكذا؟ لماذا أنت عمياء هكذا؟ ولد الطفل، أما عليمان فقد كانت تموت، لقد تمكنت أن ألفّ بطرف الثوب الرطب، هذا الطفل العاري، نظرت، وها هي عليمان بلا وعي تلوح برأسها على أيدي بيكتاش، كما كانت يداها تلوحان بلا حياة، ورأسها تدلى جانباً إلى كتفها.

- عليمان! - صرختُ بأعلى صوتي، وأخذت يدها: كانت نبضات قلبها تختفي وتعود.

وفي لحظة واحدة، وأمام عيني اصطدمت الحياة مع الموت.

عندما عدنا، كان الفجر قد أعلن عن بدايته، وأخذ الجو يزيد من لونه الرمادي الداكن، وأخذت تتساقط رقع الثلج كبيرة بيضاء فوق الطريق بهدوء. عمَّ الهدوء من حولنا، ولم نعد نسمع أي صوت كان من حولنا، إذ عمَّ السكون الأبيض، وفي هذا الهدوء الأبيض كانت الخيول تسير منهكة تضلل رقابها بأعراف بيضاء، ومدت ذيولها البيضاء إلى الأسفل كي تتقي البرد، وكان بيكتاش يبكي بصمت، وهو جالس فوق عربته، وهو لم يعد يسوق الخيول بل تركها على سجيتها تسير حسب قدرتها ورغبتها، ولم يتوقف عن البكاء طيلة الطريق، وسرت أنا إلى جانب العربة عبر الطريق العادي. وقد غطيت الطفل الوليد تحت كل ما لدينا من أغطية، وأنا أضمه إلى صدري، ولكن الثلج الأبيض الذي كان على الطريق بدا لي أسود قاتماً.

16

هذه هي الحرب تذكرني بنفسها مرة أخرى، وهذا الطريق الذي سرت عليه في ذلك الصباح كان أصعب وأقسى وأسوأ طريق سرت عليه في حياتي. وبدا لي أنه من الأفضل أن أموت من أبقى وحيدة في هذه الحياة... أما الوليد الذي أحس بالدفء قرب صدري، وأنا أضمه بيدي كان يحرك يديه الصغيرتين الناعمتين، ولم يكف عن البكاء طيلة الطريق كنت أحمله، وأقول: "يا لك من طفل ولدت تعيساً، ومع أولى صرخاتك في هذه الحياة ودعت أمك الراحلة!" وفجأة، ومن بعيد جداً ظهرت لدي فكرة "الحياة، لم تنته، ولم تستشهد نهائياً فثمة نبتة صغيرة ما زالت تنمو، وهنا أخذت أفكر:

"كيف له أن يعيش حتى أنه لم يذق طعم حليب أمه نهائياً، إنه لم يعش طويلاً" وزادت في داخلي الرغبة أن يبقى هذا الوليد حياً، وأخذت أرجو القدر لتحقيق هذه الرغبة: "أرجو أن تبقي لي هذا الوليد البريء! أرجو أن لا تميته. هل بإمكانه أن يعيش؟ ربما يتمكن وبأية طريقة كان، من الاستمرار في الحياة؟" وهكذا سرت، يائسة محطمة من جميع الجوانب، ولكنني كنت آمل الآن وأعود ثانية إلى اليأس، هلّ الصباح وكأنه لم يكن صباح عندما دخلنا إلى القرية.

كان الثلج يتساقط بهدوء، وبكثافة حتى شكل طبقة سميكة فوق الأرض، وأصبح الجو في كل مكان هادئاً صامتاً. ومن بين جوانح هذا الصمت بدت عوالم الشارع الذي شق، ولم يكمل العمل فيه، وبدت أيضاً بقايا هشة سوداء لمشاريع بناء كان أصحابها يرغبون في بناء أعشاشهم عليها، وهذا ما حاول أن يفعله قاسم وعليمان قبل سبع سنوات مضت، ولم يبق إلا هذه الآثار اليائسة. كان الثلج يتساقط فوق هذا الشارع الميت، وهو يدور حول الحدبات البارزة، وينحدر إلى الحفر التي كانت أساساً للمش الأسري، ويحرك قليلاً الحشائش والأشواك اليابسة، التي نمت خلال فترة الحرب على قطعة الأرض التي حلم قاسم وعليمان أن يعيشا عليها، ولم يبق إلا أطلال ما قاموا به. فثمة كومة من حجارة وجسور من طوب مازالا في مكانهما، وكأنهما تماثيل تذكر بتلك الأحلام الإنسانية لأسرة شابة [1].

---

[1] في هذا كله يدين الكاتب جنكيز أيتماتوف النازية الهتلرية والفاشية التي دمرت وسحقت أحلام ملايين الأسر في العالم كهذه الأسرة التي لم يبق منها إلا هذه الأم - تولغوناي - المعذبة كشاهدة حية على كل هذه المآسي -المترجم.

أما عليمان التي خلدت إلى نوم أبدي كانت ممددة صفراء مطبقة العينين، ورأسها يتقلب من جهة لأخرى مع اهتزازات العربة، كان الثلج ينزل على وجهها، ويذوب.

وعند أول بيت من بيوت القرية هبط بيكتاش عن العربة، وأخذ لأول مرة في حياته يبكي بصوت رجولي عال، ويخبر الناس عن موت الإنسانة عليمان. ومن البيوت هرع أهالي القرية، والنسوة يذرفن الدموع، هرعت عائشة وندبت وبكت، حيث سمع صوتها لنهاية الشارع. أخذت الوليد مني إلى بيتها.

قمنا بدفن عليمان، وحسب العادة أن النساء لا يذهبن إلى المقبرة، ولكنني ذهبت، ولم يقل أحد أي شيء أو ملاحظة لي: ففي البيت عندي لم يبق ولا رجل، حتى أحافظ على العادات. وأنا التي كنت أصون عليمان، ولذلك أملك كل الحق أن أدفن عليمان بيدي، وهذا ما فعلته، إذ وضعتها في أسفل اللحد، وأول امرأة وضعت حفنة تراب من الأرض الأم عليها. في ذلك اليوم تساقط ثلج ناعم، وفوق هذه الحدبة الطينية للقبر تساقط الثلج بكثافة، وحوّلها إلى حدبة بيضاء مميزة.

في الربيع قمت بزرع أزهار حول قبر عليمان، وهذا ما أفعله في كل ربيع. إنها كانت تحب الأزهار والورود.

وهكذا، ومن جديد استمرت الحياة، وفي الأيام الأولى قامت كنة جوروبيك بإرضاع الوليد جنبلاط [1] من صدرها، وبعد ذلك تعوَّد على شرب حليب الماعز. لقد شربت أنا وإياه المآسي، والمصاعب بما

---

[1] اسم من آسيا الوسطى ويسمي الكازاخ والأتراك وخاصة الأكراد أولادهم الذكور بهذا الاسم ويعني باللغة الكردية سيد (جن) البولاد (بولاط) - المترجم.

يكفي، ويكفينا كلاماً عن هذا. وبكلمة واحدة لقد كتب على جبهته من الولادة، أنه سيعيش رغم كل المعاناة، ولهذا أشكر القدر لقد أصبح له من العمر اثني عشر عاماً. والطبيب الذي عالجه في صغره وهو صغير أصبح إنساناً معروفاً في المنطقة، وعند اللقاء يسألني:

- كيف حال حفيدك يا جدة، كبر أليس كذلك؟

- أشكر، وأحمد الله - أجيب الطبيب - أصبح فارساً.

ينظر الطبيب نحوي بمودة ويبتسم، ثم يقول:

- حسناً، عسى أن تربي فيه القيم الإنسانية.

كان الطبيب يعرفنا أنا وجنبلاط. عندما كان جنبلاط قد بلغ من العمر عاماً ونصف. بالطبع كان يمرض وهو صغير كثيراً، وذات مرة مرض مرضاً شديداً حتى نفضت يداي منه لدرجة فقدان الأمل في حياته، لقد أصبحت شفتاه زرقاوتين، ولم يعد يفتح عينيه وبالكاد يتنفس، حملته وأسرعت به إلى المستشفى، وفي الليل أيضاً، وكذلك في أيام الشتاء، وتجاوزنا النهر بصعوبة ومخاطرة بحياتنا جميعاً، وفي المشفى كان هناك طبيب شاب، وكما يبدو أنه أنهى الدراسة منذ وقت قصير، وعندما رآني أرتجف من البرد في ثياب مبللة قلق على وضعي جداً، ولاح بيده قائلاً:

- ماذا حلّ بك يا جدة؟ هل فقدت عقلك؟ فمن سمح لك أن تسيري في مياه النهر الباردة؟ أين أهل الطفل؟

- أنا بالنسبة له أب وأم يا بني، أرجوك أن تعمل ما في وسعك، هيا، لا تدعه يموت، فإذا مات فإنني لم أعد أرغب بالحياة، - قلت له بحسرة.

بقي طيلة الليلة مستفرداً كل قواه لمعالجة جنبلاط، وكل ساعتين كان يعطيه إبرة، وأمر بإعطائي ثياب ناشفة، كما أخذ

يداويني. وفي الصباح ارتفعت درجة حرارتي جداً، وأخذت أتقلب في حمى قوية، وأبصق دماً من شدة السعال، حتى كنت، أغيب عن الوعي أحياناً، والدوران يأخذني في حالة إقياء سيئة جداً، وأذكر في هذه الحالة كان الطبيب يقترب مني، ويضع يده على جبهتي، ويقول:

- لا تستسلمي للموت يا ماماشا، اصمدي لقد أخذ حفيدك يتماثل للشفاء، وهو الآن يضحك.

- طالما حصل هذا فأنا سأصح أيضاً.

ربما بقيت على قيد الحياة من أجله. هذا هو قدري.

في صيف تلك السنة، حصل شيء طريف، ففي العطلة المدرسية الصيفية كان غالباً ما يركض في الشوارع، ويلعب مع رفاقه وذات يوم فوجئت أنه دخل إلى الملحق، وأنزل الدراجة التي كان يركبها قاسم، التي كانت معلقة على الجدار منذ عشرين عاماً تحت سقف الملحق. وأخذ جنبلاط ينظف الدراجة، ثم بدأ يصلحها ويبدل ما يلزم تبديله، فتركته وشأنه، فالولد يجب أن يلعب بشيء ما، وهو سيحاول ويحاول إصلاحها ثم يتركها. أما الأشياء التي تتطلب الإصلاح كانت قليلة: فالحديد لحق به بعض الصدأ، والعجلات قد جفت. وعندما جاء أصدقاؤه أخذوا يسخرون منه، إذ قالوا له: إن هذه دراجة مهترئة، وقديمة جداً، أما هو فقد كان عنيداً، وينفذ ما يريد. ولا أعلم هل كان بإمكانه أن يصلحها كلياً لو لم يساعده بيكتاش الذي تدخل في إصلاح الدراجة، وباهتمام كبير، كالولد بغض النظر أنه أصبح أباً لأطفال. إذ كان يحب جنبلاط جداً، ويرعاه، وإذا ما تطلب الأمر شيئاً في المدرسة كان بيكتاش يذهب ويناقش الأمور مع المعلمين والإدارة. ولقد تزوج بيكتاش عندما كانت أمه عائشة على قيد الحياة، ولكنها توفيت بعد ثلاث سنوات من وفاة عليمان، ولقد كان

لوفاتها أثر كبير عليّ، لأنها كانت الصديقة الوحيدة والوفية لي، وخاصة في كل المصائب التي عانيت أنا وإياها منها. ونشأ بيكتاش بصورة جيدة، وتربى تربية حسنة حتى أصبح عاملاً مجتهداً وممتازاً، وأصبح أباً لثلاثة أولاد وزوجته غولسون - إنسانة طيبة، وجارة حميمة، ولقد أصبح بيكتاش منذ عدة سنوات سائقاً على الحصادة.

وهكذا وذات يوم جاء جنبلاط وهو يركب على الدراجة، وقد نظفها، وشحمها، أما هو فكان قد لطخ نفسه بالشحوم والزيوت، وقال لي:

انظري يا جدتي كيف أصبحت دراجة أبي!

أصبت بالحيرة، وسقطت يداي استغراباً، يا له من شيء مفرح، وأحسست بمرارة تغمر قلبي من هذه الكلمات، أما هو فكان يفتخر ويقول:

- لقد تعلمت ركوب الدراجة، انظري، انظري!

- لم يكن بإمكانه أن يجلس على مقعد الدراجة لأن رجليه لا تلامسان الدواسات، فيتعلق بالدراجة من جانبها، وينحني للأعلى، ثم يمشي، وأخذ يتأرجح من جنب لجنب وأخذت أركض خلفه، الآن، الآن سيقع.

- انزل عن الدراجة، توقف، صرخت في إثره.

أما هو فقد أخذ يزيد من سرعته، فخرج من البوابة إلى الشارع، وأنا أركض خلفه، أخذ يسرع عبر الطريق فتدحرج مع الدراجة، وجرح، ركضت إليه ورفعته عن الأرض، وصرخت عليه محذرة مع التأنيب:

- تريد أن تكسر رجليك أو تدوسك سيارة عابرة، فلن أسمح لك بعد هذا أن تركب على الدراجة!

أما هو فيقول:

لن أقع بعد الآن يا جدتي، لقد حاولت التجريب فقط، فأنا لم أسقط ولا مرة عن الدراجة.

ضحكت، فرأيت بيكتاش يقف بالقرب منا إلى جانب بوابة بيتهم، وكأنه كان يقف ببساطة وينظر، فلم يقل شيئاً، وأنا لم أقل له شيئاً، ولكننا نفهم بعضنا بلا كلام.

وفي هذه الفترة كان سيبدأ الحصاد قريباً، فدخل بيكتاش إلى بيتنا عند المساء وقال:

- أريد أن أشغل جنبلاط حفيدك معي مساعداً على الحصادة.

- إذا كان سيقوم بالعمل كما يجب خذه معك، - وافقت على ذلك. بالنسبة للسماح، فلقد سمحت له، وبعد يومين ذهبت لأرى ماذا يفعل إنه مازال شاباً صغيراً ربما كان العمل في الحصاد صعب بالنسبة له.

كان جنبلاط حفيدي يعمل على الحصادة في سحب القش، وعندما رآني صرخ بأعلى صوته، وكأنه من أعلى الجبل:

- جدتي، يا جدتي! أنا هنا!

أما بيكتاش فكان يقف عند دفة قيادة الحصادة، لوّح لي بيده، وانحنى احتراماً.

جلست حتى المساء في الظل تحت شجرة بالقرب من القناة، وأنا أراقب الحصاد، والحصادات، إذ كانت تثير الغبار ذهاباً وإياباً عبر الطريق إلى البيادر، وبالعكس.

عند حلول الظلمة حضر سائقو الحصادات للاستراحة، وجاء جنبلاط معتزاً بنفسه يخطو خطوات تعبة، وكأنه يقلد بيكتاش، وبصمت على طريقته، وعندما نثر أيضاً الغبار من أنفه كما فعل

بيكتاش، وهما يفتسلان حتى الحزام على جانب القناة، وعندما شاهد صرة في يدي سرّ جداً:

- يا جدتي، هل جلبت لنا تفاحاً؟

- فأجبته مباشرة: بالطبع قد جلبت لك التفاح.

- ركض إليّ، غمرني بذراعيه، وقبلني.

أمّا بيكتاش، فلم يقدر على الصبر فانفجر ضاحكاً.

- ماذا بك تتفاخر؟ كان عليك أن تتصرف هكذا منذ أمد بعيد، اغسل يديك ووجهك، لم يعد لديك من الوقت فيما بعد.

جلس الجميع يتناولون طعام العشاء فوق العشب بالقرب من فرغونة الأرض. كان الخبز طازجاً. لقد قاموا بتحضيره قبل قليل. قطّع جنبلاط قسماً من الرغيف وقال لي:

- خذي، يا جدتي؟

لقد حمدت الله على الخيرات، وباركت القمح، وعندما أكلت قسماً من رغيف الخبز، شممت رائحة أيدي سائقي الحصادات المعروفة لي، إذ كانت تفوح رائحة الكيروسين والحديد والقش والقمح الناضج. نعم، نعم، بالضبط كما كان آنذاك، بلعت الخبز مع الدموع، وفكرت: "إن الخبز شيء مقدس وخالد، أنت تسمع يا بني، يا قاسمي الحبيب! والحياة خالدة أيضاً، والعمل خالد إلى الأبد أيضاً!".

ولم يسمح لي الحصادون بالعودة إلى البيت، وقالوا: أنتِ اليوم في ضيافتنا، وحتى أبقى معهم في الأرض فرشوا لي بساطاً على القش، وأمضيت أغلب الليل، وأنا أرقب السماء، وتصورت أن درب التبانة قد نثر بالتبن الذهبي من قريب، كما نثرت حوله حبوب ذهبية، وقشارة التبن، وفي هذه التشكيلة للنجوم للميزان عبر درب التبانة كما في

الأغنية البعيدة يبتعد القطار، ويغادر ضجيج عجلاته، ولقد نمت تحت هذه القرقعة المتناهية، وأنا أفكر أنه ولد اليوم في الكون حصاد قمح جديد، وعسى أن يعيش طويلاً، وليكن لديه الكثير من القمح وأكثر من النجوم في السماء.

وعند طلوع الفجر نهضت حتى لا أزعج الحصادين، وذهبت إلى القرية.

منذ زمن بعيد لم أعد أرى مثل هذا الفجر الرائع فوق الجبال، ومنذ أمد بعيد لم أعد أسمع أغاني القنبرة، التي كانت تطير وتعلو وتعلو في السماء الصافية، ويبدو هناك كحصوة رمادية، وكأنه قلب إنسان، فكان يدق، ويدق بلا كلل أو ملل يرفرف ويزقزق، وتصل نغماته إلى كل الحقول. "انظري هذه هي قنبرتنا تغني!" قالها في وقت ما سوفانكول، يا للعجب حتى بين القنابر توجد لنا قنبرة خاصة بنا، وأنت خالد إلى الأبد أيها العصفور الجميل!

17

آه، أيّتها الأرض المقدسة، يا عزيزتي، أنت الآن تخلدين للراحة بعد الحصاد! فلم تعد تسمع هنا أصوات البشر، ولم تعد تثير السيارات الغبار عبر الطرقات، وغادرت الحصادات، ولم تأت بعد قطعان الماشية. لقد أعطيت للناس ثمارك، والآن تستلقين كالمرأة بعد الإنجاب. أنت الآن سوف تسترخين حتى حراثة الزرع. الآن أنا وأنت اثنتان ولا يوجد غيرنا هنا. أنت تعرفين كل حياتك، واليوم هو يوم الغفران، وأنا أقف هنا أحني رأسي لذكرى سوفانكول وقاسم وماصلبيك وجاياناك وعليمان، وما دمت حية لن أنساهم أبداً. وسيأتي وقت أحدث فيه جنبلاط عن كل شيء، فإذا كان موهوباً منذ

ولادته، وأعطاه الله العقل والقلب، فإنه سيفهم كل شيء، وكيف الأمر مع الآخرين، مع الناس الآخرين، الذين يعيشون في هذا الكون؟ فلدي حديث لهم كيف من الممكن أن يصل إلى قلب كل إنسان؟

إيه، أيّتها الشمس المنيرة في السماء أنت تدورين حول الأرض فأخبري الناس!

إيه، أيّتها الغيمة الماطرة اسكبي مياهك الصافية فوق العالم، وقولي من خلال كل قطرة تنزل إلى الأرض!

أيّتها الأرض - الأم المرضعة، إنك تحملين الجميع، نحن كل البشر، فوق صدرك، وتطعمين الناس في جميع أصقاع المعمورة أرجوك أن تقولي أيتها الأرض العزيزة، قولي للبشر:

- كلا، يا تولغوناي، أنت أخبري. فأنتِ - إنسان، وأنتِ أرقى من الجميع، وأنتِ أكثر حكمة من الجميع. أنتِ - إنسان! أخبري أنتِ عن كل شيء!

18

- أنتِ مغادرة يا تولغوناي؟

- نعم، سأغادر، وإذا بقيت على قيد الحياة، سأعود إليك مرة أخرى، إلى اللقاء، أيّتها الأرض الأم.

جنكيز
ايتماتوف

الأرض الأم

يُذهل القارئ عندما يغوص في عالم الكاتب العظيم جنكيز أيتماتوف الإبداعي، ويصل إلى حد الانسجام العميق مع الأفكار المطروحة لدرجة الاتحاد الروحي في معاناة أبطال أعماله الأدبية كما فعل في روايته الخالدة "النطع".

وفي رواية "الأرض الأم" نجد الأرض تحس وتتكلم وتجيب عن أسئلة أبنائها البشر، وتتعاطف مع مشاعرهم وإحساساتهم كما تتعاطف الأم مع رضيعها، أو الأخت مع أخيها، أو الحبيبة مع حبيبها...

لقد أبدع المؤلف بتجسيد معاني الحب الذي يولد من خلال العمل التعاوني في زراعة الأرض الحبلى بالسخاء الدائم. وهكذا أصبحت بطلة الرواية رمزاً للوفاء والعطاء.

الناشر

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 00963 11 5627060
فاكس: 00963 11 5632860

دار علاء الدين
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241